HAZEM MASSAOD
HM
E-Books

محمد طرزي

رسالة النور

رواية عن زمان ابن المقفع

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

رسالة النور

رواية عن زمان ابن المقفع

محمد طرزي

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
1437 هـ - 2016 م
ISBN: 978-614-02-2844-3
جميع الحقوق محفوظة
توزيع

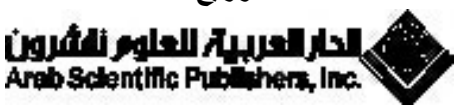

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: jchebaro@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb
يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش. م. ل
تصميم الغلاف: علي القهوجي
التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف (+9611) 785107
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف (+9611) 786233

كلمة شكر للأصدقاء باسل بري، حمزة هاشم وعلي شرف الدين الذين قدّموا ملاحظات وخدمات ما كان بالإمكان من دونها أن تصدر الرواية بالشكل الذي صدرتْ به.

كتاب دمشق

"ربما لم يوجد كاتب يعدِل عبد الحميد فصاحة لفظ، وبلاغة معنى، واستقامة أسلوب. فهو أحسن من كتب العربية ومَرَنها، وأقدَرها على أن تتناول المعاني المختلفة وتؤدّيها".

طه حسين

I

دمشق 746م

وسط الأشجار الباسقة وتحت سماء صافية تتلامس فيها أطراف الغيوم، سارت مطيّة على ظهرها شاب في منتصف العشرينات. ممشوق، عمامته مكوّرة وقسماته مليحة. ترجّل عن مطيّته عند ضفة نهر مسيّج بالصفصاف. نزع عمامته وانحنى تاركاً الماء ينساب في جوف راحتيه ثم مطّ شفتيه وراح يروي ظمأه. تابع سيره متمهّلاً حتى لاحت أمام ناظريْه المدينة الحلم. الحاضرة التي تغنّى بعجائبها الشعراء والمسافرون والرُّحَّل. دمشق، بعد أسبوعين من السفر، مدينة أسطورية العظمة. جدرانها المزخرفة تبهج النفوس وشوارعها الفسيحة المحفوفة بأشجار النخيل ليس في نيسابور ولا الرصافة، وربما في العالم كلّه، مثلها جمالاً وروعة. عند كلّ ناصية، سبيل مصنوع من الخزف ونافورة من المرمر ترشّ ماءها، فيطيب الجو وتبعث خريرها، فتطمئن الأنفس. أسواقها المسقوفة لا تُحصى وحدائقها المترامية تؤوي ألف نوع من الورود التي تتفتّح أوراقها في مثل هذا الوقت من السنة. أما قلاعها وأسوارها ذات الخمسة فراسخ والتي شُيّدت لحمايتها من الغزاة، وهم كثر، فتُظهر بجلاء مجدَها وتعكسُ عظمتَها كمدينة تتربّع على عرش الزمن.

ولئن اعتاد الأهالي في دمشق أن يتسكعوا في المساءات الدافئة، مستمتعين بلمسات الربيع ونسماته العطرة التي تأتي من جبل قاسيون عبر البساتين الزاهرة، فقد مرّ المسافر بين الناس من دون أن يحسَّ بوطأة نظراتهم. أينظرون إليه بعيون فاحصة وهم الذين يتباهون بمدينتهم التي تجذب الساعين إلى العلم والثروة من كلّ بقاع الأرض؟

أكمل الرجل سيره متمهّلاً خشية أن تدوس مطيّته صغيراً يجري فوق البلاطات أو ترتطم ببسطة خشبيّة لبائع فواكه أو خُضَر. وإذ ترامى إليه صخب من مكان قريب فقد ترجّل عن جواده وسارا معاً تحت قنطرة مزخرفة بنقوش تمثّل نباتات تتمايل لتتصل أطرافها وتنفصل. ألفى نفسه وسط جمهور يتابع مصارعة حامية الوطيس بين ديْكين. تفرّج لبرهة ثم أشاح وابتعد عازماً على البحث عن خان يمضي فيه ليلته.

دخل قيصرية التّجّار. تطلّع إلى قوارير العطور والمشغولات الذهبية والقلانس والمناديل الملوّنة المعروضة للبيع. حيّاه بائع القناديل ودعاه للشراء، فابتسم المسافر شاكراً ومشى متباطئاً ممسكاً بلجام جواده. قصد دكاناً صغيراً في سوق المأكولات واشترى زبيباً وتيناً مجفّفاً. ثم سلك زقاقاً ملتوياً، لم يكن يدري إلى أين يفضي. هناك علق بصره بامرأة تخلب اللب، شعرها أسود مضفور وعيناها لوزيتان. رمته بنظرة عجلى، فحكّ رأسه وهمس "يا الله". لم يكن قد رفع صوته لكن الجميلة قرأتْ شفتيه وابتسمت، فعرته مشاعر غامضة وأحسّ بأن شكله راقها أيضاً. تباطأ وأخذ يمضغ الزبيب وهو يتابع مشيتها الوئيدة وحركة الخلاخيل في كاحليها حتى ابتعدت تماماً. عثر على صبـي مقرفصٍ تنحدر الدموع من عينيه ويمسح مخاطه بطرف ثوبه. سأله **"ما بك؟"** أخبره بأنه أضاع درهماً. فأخرج درهماً من بدرته. **"آه.. إنه لك إذاً.. وجدته خارج حانوت الورّاق.. هل أضعته هناك؟"** هزّ الصبـي رأسه أن نعم. تلفت حوله في حذر، ثم خطف الدرهم من يد الرجل وفرّ مسرعاً.

في نهاية الزقاق دنا من المسافر عبد أسود. ثوبه أحمر فضفاض ووجهه حليق، لا لحية ولا حاجبان. سأله بعربية ركيكة إن كان يفتّش عن مكان يبيت فيه، فهزّ المسافر رأسه إيجاباً وقد قدّر

أن صاحب أحد الخانات قد أمره بترصّد الزبائن عند هذا المنعطف. وها هو يتبعه حتى أدركا بوابةً خشبيّة تعلوها لافتة كُتب عليها بخطٍّ كوفيٍّ عريض "خان المسافر". دلفا معاً عبر البوابة إلى فناء مكشوف، فيه بركة رخامية ثمانيّة الأضلاع، تتوسطها كأسٌ من المرمر يتدفّق منها ماء يلتمع كالفضة. نقّل المسافر عينيه في أرجاء المكان متأمّلاً الحظيرة ذات المزاود والمساقي، والمبنى الداخلي المؤلّف من غرف صغيرة.

فاوضَ صاحب الخان على استكراء إحدى الغرف. بدت الأجرة مرتفعة لكن المسافر فكّر مليّاً وخلص إلى أن لا خيارات لديه، فالوقت تأخّر والليل أسدل ستاره. ينام الليلة هنا ويتدبّر أمره في الغد. نقده الدراهم وهمّ بالتوجّه إلى غرفته. سأله صاحب الخان عن بضاعته ليحفظها في مكان آمن، فأخبره بأنه ليس تاجراً بل هو في دمشق طلباً للعلم. تفرّس فيه صاحب الخان الذي بدا لشدّة بياضه رجلاً مصنوعاً من الرخام، ثم ربّت على كتف المسافر وهو يعيد إليه نقوده. **"طالبو العلم في دمشق ضيوفي".** قالها بنبرة صادقة، فأحسّ المسافر بخجل في دخيلة نفسه، إذ لم يكن يتوقّع منه هذا السخاء.

"لا تختجل.. هذا الخان خانك.. الرسول وصّى بإكرام طالبي العلم..".

في غرفة صغيرة، فكّ المسافر سيور جزمتيه المغبّرتين من طول السفر، وارتمى على الحصيرة وفرد ذراعيه على امتدادهما. ترامى إليه ضوء القمر من كوّة صغيرة في الجدار مضفياً عليه لوناً عاجياً جعله يبدو أكثر وسامة، ثم أخرج من جيبه كيس الزبيب. وضع قبصة من الحبيبات الشقراء في فمه. تركها تذوب في حلقه على مهل مستحضراً وجه المرأة ذات النمش الخفيف والشعر الأسود المضفور، وإذْ به يغمغم لا إرادياً "يا الله".

بعد برهة سمع طرقاً على الباب، إنه الخادم. أرسله صاحب الخان لكي يقدّم له وجبة من اللحم المقدّد ويشعل له عوداً من البخور لطرد حشرات الليل.

غداً يلتقي عبد الحميد الكاتب، "صاحب الديوان" في قصر الخليفة. لقد قطع كلّ تلك المسافات على ظهر دابته من أجل هذا اللقاء. هكذا يظن الآن وهو في غرفة مستطيلة في أحد خانات دمشق؛ يظنّ بأنه عبر كل تلك الأميال لكي يلتقي عبد الحميد، فيذلل له صعاباً لا يملك التغلّب عليها من دونه. بعد عشر سنوات وبينما هو جالس أمام أوراقه ودواته في "كرمان" ينصت إلى إيقاع نفسه، سيدرك أن السبب الحقيقي لمجيئه إلى هنا أعمقُ من ذلك بكثير، وأن غايةً مقدّسةً في أعنّة القدر هيّأت له كل أسباب هذه الرحلة.

♦ ♦ ♦

II

في صباح اليوم التالي، استيقظ المسافر متورّد الوجه، رائق المزاج. شكر صاحب الخان على استضافته وامتطى صهوة جواده ميمّماً شطر قصر الخليفة، قلعة المجد ومعقل السلطة والسيوف. حين استوى على سرجه، تتطلّع إلى السماء فوجدها صافيةً ممشحةً بسحب منثورة ونوارس بيض. هبّت عليه نفحة رائعة من رائحة الخُزامى، فغذّ السير مترنّماً بقصيدة شائعة لجرير ومصغياً لشدو العصافير وتغريدها. ولئن كان عليه أن يجتاز أكثر من حاجز يقف عنده حرّاس عرب وأرمن يستجوبون الزوّار بجلافة ويبعدون المزعجين، مانعين إيّاهم من استكمال طريقهم نحو القصر، فقد انتشى قلبُه بفرح عامر حين أدرك بوابة القصر الرئيسية من دون صعاب تُذكر. تجاوز البوابة الخشبية الشامخة ذات المربّعات والمثلّثات المتداخلة بإتقان وإذ به داخل قاعة فسيحة، سقفها عالٍ وجدرانها مغطّاة بالسجاجيد والديباج. دار بعينيه متفقّداً المكان. توزّع بصره بين السُّرُج المطفأة والمعلّقة على الجدران، وبين النقوش التي تمجّد الله ورسوله، وبين صفوف المتظلمين الذين يعرضون مطالبهم ودموعهم أمام رجل قصير جاحظ العينين، لا يكفّ عن هزّ رأسه وإعطاء وعود برفع التماساتهم إلى عَنان الأمير.

وإذ جاء دور المسافر بعد انتظار فقد ألقى التحية وصرّح بهويته "عبد الله من البصرة. أتيت للقاء السيد صاحب الديوان". رفع صاحب الإذن رأسه عن الدفتر الكبير الذي يسجّل فيه الأسماء والملحوظات. حكّ لحيته المخضّبة وحدج الرجل بنظرة متفحّصة من قدميه حتى رأسه. عمامته بيضاء، ثوبه رمادي متواضع لكنه نظيف. نظراته برّاقة وهيئته لا توحي بأنه من المزعجين، لكن تعاليم "صاحب الديوان" حازمة أن لا يُسمح لأحد بدخول حجرته حتى إشعار آخر. فما كان من صاحب الإذن إلا أن طلب من عبد الله العودة بعد شهر.

بلع المسافر ريقه واكتسى وجهه بمسحة حزن. حاول أن يشرح للرجل بأنه قادم من مكان بعيد وليس له أهل أو مأوى في دمشق، بيد أن صاحب الإذن أشار له بحركة فظّة أن يكفّ عن الكلام. ثم نظر مباشرة إلى شيخ عجوز واقفٍ خلفه، سرعان ما شرع بنقل شكواه.

وإذ مرّت دقائق حيرة، سار بعدها عبد الله بحركة وئيدة. بدا كسير الخاطر، مطأطئ الرأس، لا يعلم ماذا يصنع. اجتاز البوابة الخشبية ونزل الدرجات الثلاث بخطوات ثقيلة. في تلك اللحظة، تذكّر صاحب الإذن أمراً بغاية الأهمية. فخرج من وراء المكتب الخشبي في عُجالة. هرع خلف المسافر منادياً إيّاه بأعلى صوته: **"أيها الأخ.. توقّف من فضلك.."** وإذ استدار المسافر نحو مصدر الصوت فقد سأله صاحب الإذن بصوت لاهث:

- أتُكنّى بأبـي عمرو؟

انفرجتْ أسارير عبد الله وأردف بنبرة متأمّلة:

- نعم سيدي!

زفر الرجل أنفاسه وأهتزّ كرشه الكبير في ارتياح:

- هلّا تكرّمتَ أن تتبعني. السيد صاحب الديوان في انتظارك!

♦ ♦ ♦

III

تبعه عبد الله في أروقة القصر، ترجّه فكرة اللقاء فتتسارع دقات قلبه بفرح منتشٍ، وتسري في بدنه رجفة غامضة. حين بلغا مقصورة عبد الحميد طرق صاحب الإذن باب الغرفة المفتوح جزئياً، ثم ولجها من دون انتظار الإذن بالدخول. أما عبد الله فقد ظلّ واقفاً في الخارج يتابع من فرجة الباب عبد الحميد الجالس أمام دواته وأوراقه. انحنى صاحب الإذن فوق رأس الكاتب وهمس بشيء ما. رفع عبد الحميد حاجبيه في دهشة وفتح عينيه على اتساعهما. بدا واضحاً أن مشاعر جميلة اعترته ما إن لُفظ اسمُ زائره، فنهض وتوجّه بخطى واسعة نحو الباب. وإذ أصبح الرجلان متقابلين انعقد لسانهما. مرّت لحظات صمت، ما لبث أن تبعها عناق حار، فعبارات توحي بعدم التصديق.

ازدهى عبد الله بهذا الترحيب. حدج صاحب الإذن بنظرة امتنان لأنه سهّل هذا اللقاء ولم يتركه يعود أدراجه خائباً.

أمسك عبد الحميد بيد زائره ودلفا معاً إلى حديقة القصر، يواصل المضيف عبارات الترحيب كأن كلمات الود جدولٌ تصبّ فيه محبة لا تنضب. أما عبد الله فقد توزّع بصره بين حوض البركة الوردي والماء الذي يتدفّق من وسطه على شكل زهرة فضّية، وبين الطيور المدهشة الألوان والأوز ذوي المناقير البرتقالية التي تسبح في أحواض تميل إلى الخضرة فيما تطفو زهور من الزنبق على سطحها. مشى الرجلان بخطى وئيدة بين الأشجار المثقلة بالثمار وتحت عرائش العنب، يطمئن كلٌّ منهما الآخر عن أحواله. وإذ جلسا على مقعد خشبـي في بقعة معشوشبة خلف أجمة للنخيل، قال عبد الله:

- هناك أمر يشغل بالي!

ابتسم عبد الحميد وغلغل يداً في لحية نصف شيباء.

- تريد أن تفهم كيف تعرّف عليك صاحب الإذن! منذ اليوم الأول الذي عُيّنتُ فيه "صاحب الديوان"، دعوته إلى مقصورتي وأخبرته أن رجلاً في منتصف العشرينات، طويل القامة، كريم الخلق، يُدعى عبد الله ويكنّى بأبـي عمرو، سيأتي لزيارتي عمّا قريب. إنه رجل علم وأدب، ولا يعدل مكانته عندي مكانة، ومنزلته في قلبـي تفوق كل منزلة.

نظر عبد الله إلى وجه مضيفه، وتساءل في ارتياب:

- ألم يمضِ طويل وقت على تعيينكَ صاحب الديوان؟

ابتسم عبد الحميد ابتسامة ناعمة:

- بلى، ولكني دأبت على تذكيره بك كلّ يوم!

تقدّمت جاريةٌ زنجية ووضعت على المقعد بينهما صينية عليها كأسا شراب وإبريق من الفخار.

- وما الذي حملك على الاعتقاد بأنني آتٍ لزيارتك لا محالة؟

- قولك المأثور: "إذا نابتْ أخاك إحدى النوائب من زوال نعمة أو نزول بلية، فاعلم أنك قد ابتليتَ معه. وإذا أصاب أخاك فضلٌ، فأنه ليس في دنوكَ منه أو ابتغائك مودته وتواضعك له مذلّة فاغتنم ذلك وأعملْ به". وها قد أصاب أخاك فضلٌ عظيمٌ من الله. أؤمرني أطعْكَ وتمنَّ أليّك لكن إياك أن تتردد. فشواهد التاريخ تؤكّد أن المجد لحظة زائلة.

التقط عبد الحميد إبريق الفخار. سكب الماء في فمه. ارتوى وغمغم بالشكر. ثم تابع بنبرة يغلب عليها المرح:

- افصحْ بما تشاء. ليس كلّ يوم يكون لأخيك حظوة منيعة لدى خليفة المسلمين!

تأثّر عبد الله برغبة صاحبه في مساعدته ولمعت في عينه دمعة بذل جهداً لإخفائها.

- لم يساورني شكٌّ في أيّ يوم من الأيام بأنك محراب حاجتي وملاذها لكنني أخشى أن يباغتك مطلبـي فتسيء الظن بـي!

تحشرج صوت الكاتب فيما هبّت عليهما نفحة من رائحة الياسمين.

- ويْحك، أبا عمرو. أيسيء مثلي الظن بأمثالك؟!

صمت الضيف وأحاط كتف صاحبه بذراع خالطها التقدير. وقبل أن يبوح بما يدور في خلده، نهض عبد الحميد استعداداً للمغادرة. فقد قدّر من مسار قرص الشمس أن وقت صلاة العصر قد شارف على الحلول، فاستأذن صاحبه أن يكملا حوارهما بعد تأدية الصلاة. بدا واضحاً أن الكاتب لم يدعُ ضيفه لمشاركته الصلاة في الجامع المحاذي للقصر، إذ تركه في الرصافة منذ سنوات خلتْ على غير ديانة الإسلام.

غادر عبد الحميد وتناول عبد الله من أمامه إحدى الكأسين. احتسى الشراب مطوّلاً وهو ساهم في النافورة التي ما فتئت ترش ماءها أمام ناظريه. جال بطرفه وعلقت عيناه بنافذة ذات قضبان حديدية خضر تتعرّج كالغصون. وما هي إلا برهة قصيرة حتى أطلّت امرأة. تملّى ملامحها وهاله أن تكون المرأة نفسها التي ابتسمت له في الزقاق. عرفته بدورها وبدا كلّ منهما حائراً لوجود الآخر في هذا المكان. ظلّ كلٌّ منهما يرمق الآخر بنظرات متواصلة من دون أن يعرف أيٌّ منهما إن كانت تلك النظرات مشاعرَ محدّدة أم مجرد حشريّة فرضتها المصادفة.

♦ ♦ ♦

IV

أنهى الكاتب صلاته وتوجّه باشّ المحيّا، منتشي الخطى إلى الحديقة. دفع بوابتها الحديدية الخضراء فاستجابت بصوت يشبه الأنين. جال ببصره ورأى صديقه جالساً فوق المقعد الخشبـي. أصلح عمامته وقال بصوت يشي بانشراح الصدر:

- هبطتَ علينا من السماء كأنك منٌّ وسلوى!

أشاح عبد الله ببصره عن النافذة حيث تقف المرأة ذات الضفائر. ابتسم وقد بدا مغموراً بطمأنينة فرضها سحر المكان. أردف عبد الحميد:

- والآن قل لي يا أبا عمرو. كيف لي أن أخدمك؟

تنحنح الزائر في ارتباك. تحسّس لحيته الخفيفة وقال:

- أبحث عن عمل.
- لبّيك!
- ليس أي عمل. أشتهي أن أصير كاتباً في دواوين الخلافة!

امتقع وجه عبد الحميد وشحبت ملامحه. ولعل ألف فكرة مرّت في خلده قبل أن يتنهّد عميقاً:

- لم أعهدك إلا رجلَ علم، ولم أعرفك إلا إنساناً هاجسه الحقيقة، ولا شيء سواها. كأنك تغيّرت! كأن الأيام غيّرتك يا أبا عمرو وأنستك القول المأثور "بئس العلماء على أبواب السلاطين".

لقد قسا عبد الحميد على صاحبه، بيْد أن كلماته لم تكن سوى صرخة ألم من رجل تمرّس في حياة القصور، وعانى ما عاناه جرّاء عمله ككاتب في الديوان.

- ها أنت ذا لا تحسن الظنّ بـي وتتهمني بالسوء بعدما وعدتني بخلاف ذلك.

كانت نبرة عبد الله خافتة لكنها أقرب ما تكون إلى نبرة عتب.

لم يقصد عبد الحميد أن يجرح مشاعر صديقه بقدر ما قصد تجنيبه مرارة ما يتذوّقه في القصر، وحمايته من جموح خياله. فما لم يقله إن الملوك إن سخطوا على كاتبهم أهلكوه، وإن رضوا عنه كلّفوه بما لا يُطاق. كأن يسوّد رسائل تحرّض أميراً على أمير، ويخطّ كتباً تحث على قمع ثورة هنا، أو التخلّص من معارض هناك، بالاستناد إلى تقارير دسّها مخبرون، لم يتسنَّ لأحد أن يتحقق من مدى صحتها. فهل هنالك أقسى من أن تخطّ يد المرء رسائل تحثّ على قرع طبول الحرب، بينما قلبه وعقله ينشدان السلام، ولا شيء غير السلام؟

أدرك عبد الحميد بأنه اشتطّ قليلاً، فأسرع يقبّل كتف ضيفه معتذراً:

- أنا أكبر منك بعشر سنوات على الأقل. كما أن السنوات الطويلة التي أمضيتُها في القصر تسمح لي أن أقول لك إن حياة القصور لا تليق بالحكيم الأريب. فنحن، رغم اختلاف طبائعنا وتباين نظرتيْنا إلى ما وراء الحياة، نملك النظرة نفسها إلى الحياة. حين كنت في سنّكَ أو أصغر منك بقليل، عرض عليّ صهري أن أعمل تحت إشرافه في ديوان الخليفة هشام بن عبد الملك، بعدما استحسن لغتي، وطابت له بلاغة لساني. لم أصدّق يومها! فقد عُرضت عليّ الجنة بطولها وعرضها. هكذا ظننتُ لأن زوج أختي لم يكن ذا حكمة ليخبرني أن الجنة المعروضة مُوثقة إلى جحيم المكائد وفقدان الذات. ترجمتُ في القصر رسائل أرسطو، وتطلعت بفارغ الصبر لليوم الذي أصير فيه، مثل ذلك الفيلسوف العظيم، معلماً وناصحاً لقائد كالإسكندر. ما لم انتبه له وقتها أن

الإسكندر لم يكن يعمل بنصائح معلمه بل ظلّ حتى آخر يوم في حياته يروي سلطته بدماء جنوده الفقراء. إذ كيف لك أن تقنع الملوك بقوة السلام وهم يعتقدون أن الحروب وحدها تظهر عظم قوتهم؟!

بلع عبد الحميد ريقه. أضاف وقد ازدرد لعابه:

- لعلك تقول في سرّك، ما دهاه عبد الحميد، ينصحني بأن لا أعمل لدى السلاطين وهو صاحب ديوان الخلافة. فأي طبيب هذا الذي يداوي الناس وهو عليل؟

غمغم عبد الله عبارة "معاذ الله" لكن الكاتب لم يتوقف عند العبارة وأكمل ببطء:

- بما لي اليوم من حظوة لدى خليفة المسلمين، أستطيع أن أرفع أناساً إلى السماء وأخفض آخرين إلى الحضيض. ولربما يظن بعضهم أنني باقٍ في منصبـي لهذا الأمر. لا، والله شاهد أنني لم أبقَ في هذا المكان إلا لأنني ما زلتُ قادراً على إقناع الأمير بتوزيع بعض الضرائب والمكوس على بناء مصحّات ومكتبات ومدارس. أنت إن تطفْ شوارع دمشق الآن ترَ العمائر وتسمعْ ضجيج العاملين الذين يشتغلون من مطلع النهار حتى مغيب الشمس. أزاميلهم تعمل في الحجارة ومناشيرهم في الخشب. دمشق اليوم ورشة ضخمة يا عبد الله. وكل ذلك بفضل الله وجهد عبده الفقير. هنا على مقربة من القصر، أقنعت الخليفة بتشييد واحدة من أهم المدارس في الأمة وربما في العالم كله. أنا شخصياً أشرف على بنائها، وسوف تحمل اسم رسولنا الأعظم، ومعلمنا الأول، محمد بن عبد الله صلّى الله عليه وسلّم.

توقّف عبد الحميد فجأة عن الكلام. لمعت فكرة في ذهنه، فقال وهو ينظر إلى ضيفه نظرة صادقة:

- ما رأيك لو طلبتُ من الخليفة أن يعيّنك أميناً لهذه المدرسة العظيمة. اخترْ أنت معلميها وحدّدْ مناهجها الدراسية وخصّصْ منحاً لمن تشاء. فنحن لن نجد في الأمة كلها معلماً وحكيماً أريب مثلك. سمعتُ أنك أفضل من يشرح الأنساب والقصص، وأحسن من يبيّن أيام العرب وتاريخ العجم باللغات الثلاث، الفارسية واليونانية والعربية.

- ثقتك تشرفني ومدرستك مشروع عظيم يا أخا الصفاء، لكنني ما زلتُ مصرّاً على العمل في دواوين الخلافة، لا طمعاً بمال ولا سعياً لمنصب. إنما أنشد بتقرّبـي من الحكّام وضع كتاب لا يضلّون من بعده، كتاب يفيض حكمة وينضح عبراً. فيكون للسلاطين صلاحٌ وللرعية ضمانة لما سيُسرد فيه من ضروب في القضاء على الفساد وإصلاح القضاة والجند والخراج. إذ للحكّام كما تعرف سكرة كسكرة الشراب لا تفيق منها إلا بمواعظ العلماء وأدب الحكماء. وقد تفكّرت مليّاً وخلصت إلى أنني لن أستطيع وضع ذلك الكتاب من دون أن أرى كيف تُدار البلاد وأمور العباد عن كثب.

انفرجت أسارير عبد الحميد، وردد آية من الكتاب الحكيم:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ) [إبراهيم: 24].

ثم أردف وهو يربّت على ساق صاحبه:

- جُزيتَ خيراً يا عبد الله. فسعيك نبيل وغايتك مقدّرة. وأنا لا أملك إلا أن أشدّ على يدكَ للمضي في ما عزمتَ عليه وإن كنت مؤمناً أن تغيير الطبائع ليس بالأمر اليسير. كما أن الحكّام لا يلتفتون إلى أخطائهم إلا بعد أن يفقدوا سلطانهم ويخسروا تيجانهم.

انتبه عبد الحميد إلى أن ضيفه كثير التطلّع إلى الشرفة خلفه. فالتفت بدوره وتملّى وجه المرأة الوضّاء وشعرها الأسود المضفور، ثم حوّل نظره عنها. حكّ صدغه، وقال بنبرة حازمة وإن مرحة: **"إنها نجمة، جارية الخليفة والأحب إليه. لا تحلم بها إن كنت تريد الاحتفاظ برأسك".**

ابتسم عبد الله:

- لا حلم لديّ إلا وضع الكتاب الذي حدثتك عنه للتو!

- أما أنا فلا حلم لديّ إلا أن أراك أمين مدرسة الرسول الأعظم. فكّرْ بهدوء وادرسْ خير الأمرين وشرهما ولا تأخذ قراراً قبل نهاية يوم الغد.

بنظرةٍ مستفهمة:

- ولمَ ذلك؟

- دعا الخليفة مستشاريه وقضاته للتشاور في شأن الرسالة التي بعثها والي خُراسان.

صمت قليلاً كأنه يزن ما ينوي قوله:

- هناك تمرّد في خُراسان وأميرها يحثّ الخليفة على إرسال جنده لقمع ذلك التمرّد في مهده. كما تعرف خُراسان تتميّز بتنوّع فكري وثقافي قلّ نظيره في العالم الإسلامي، ومن السهل أن يستغلّ أحدهم ظلماً واقعاً على فئة ليؤلّبها على الحاكم.

شرب عبد الحميد ماء من الإبريق وتمتم بالشكر. ثم أردف:

- قاضي القضاة يريد إقناع الخليفة بإرسال جنده للقضاء على الضالّين هناك، فيما أسعى أنا لإقناعه بخلاف ذلك. يسرني أن تكون بيننا في قاعة العرش لترى بنفسك ما أعانيه وما لا أريده لك. كما أنها مناسبة لكي تتعرّف إلى أمير المؤمنين عن كثب.

ما إن أنهى عبد الحميد كلامه حتى ضرب كفّاً بكفٍّ مصفّقاً، فحضر في الحال غلام نحيل ذو عينين غائرتين:

- هذا عبد الله، صديقي وضيفي. أرجو أن ترافقه إلى مقصورته.

- أمرك سيدي!

حين اختلى عبد الله بنفسه أطال التفكير في كلام مضيفه. فتح كاغده بعدما أسرج قناديله. غمس الريشة في الدواة وخطّ الكلمات التالية:

"كان لي أخٌ، أعظمُ الناس في عينيّ. وكان رأس ما عظّمه في عيني صغرَ الدنيا في عينيه. كان خارجاً من سلطان بطنه. فلا يشتهي ما لا يجد، ولا يكثر إذا وجد. وكان لا يتأثر عند نعمة، ولا يستكين عند مصيبة. وكان خارجاً من سلطان لسانه، فلا يتكلم بما لا يعلم. وكان أكثر دهره صامتاً، فإذا قال بزّ القائلين. وكان لا يلوم أحداً حتى يعلم ما عذره. وكان لا يشكو وجعه إلا عند من يرجو عنده البراء، ولا يستشير صاحباً إلا أن يرجو منه النصيحة. وكان لا يتبرّم ولا يتسخّط، ولا يشتكي ولا يشتهي ولا ينتقم من العدو، ولا يغفل عن الولي ولا يخصّ نفسه بشيء دون إخوانه من اهتمامه وحيلته وقوته".

♦ ♦ ♦

V

توقّف عبد الله عند مدخل قاعة العرش. تأمّل جدرانها البيض وسجاجيدها المشغولة بعناية مخفياً بذلك ارتباكه من العيون التي تعلّقت به. لمحه عبد الحميد بطرف عينه واستأذن الخليفة أن يُدخله، فهزّ الخليفة برأسه. تقدّم عبد الحميد نحو صاحبه وقاده من يده باتجاه سرير العرش. وها هو يدبّج الكلام أمام أمير المؤمنين المتربّع فوق الأريكة:

- مجلسنا اليوم يضم أكتبَ خلق الله وجامع حكمة كل الأمم!

التفتَ الحاضرون بكليتهم صوب الرجل. تهامسوا في غيظ من الديباجة التي توسّلها عبد الحميد في تقديم صاحبه. أما الخليفة، مروان بن محمد، فقد اغتبط ورحّب بالزائر:

- إن أفضل ما يكسبه الحاكم مجالسة ذوي الفطن!

أربكت الحفاوة الضيف، فلمس جبهته بيده ووضعها على صدره مع انحناءة بسيطة وهو يقول:

- إن أفضل الحكّام أولئك الذين لا تضيق صدورهم بأصحاب الرأي، فلا يكون السكوت في مجلسهم من ذهب ولا تكون الندامة في حضورهم عاقبة الكلام.

دعا الخليفة الضيف بيده أن يأخذ مكانه، فتوجّه عبد الله إلى آخر القاعة. جلس بجوار رجل عجوز أشيب، على مشارف الثمانين، متغضّن الوجه، يزمّ عينيّه وينكبّ إلى الإمام في كل مرة ينبري فيها أحدهم للكلام.

افتتح الأمير الجلسة طالباً من عبد الحميد أن يتلو الرسالة التي بعثها "نصر بن سيار الليثي"، والي خُراسان. تناول الكاتب الرسالة. تنحنح واتخذ هيئة الخطيب:

- *"بسم الله الرحمن الرحيم*

وأطال الله بقاء أمير المؤمنين ومد سلطانه على الخافقين..

- امضِ إلى لبّ الرسالة.

- *.. أما بعد فإنني أرى جذعاً، إن يئن لم يقوَ ريضٌ عليه. فبادر قبل أن يثني الجذع!*

ثم جلس الكاتب بحركة متردّدة على وسادة طويلة من الجلد. برطم أبو عثمان، قاضي القضاة، وباغت عبد الحميد بنبرة حازمة: **"لماذا صمتَ كاتبنا.. علمنا أن هناك رسالة أخرى.. هلّا تكرّمت بقراءتها على مسمع أمير المؤمنين؟".**

ارتفعت الأنوف واتسعت العيون وشُدّت الوجوه كالأوتار. أما العجوز بجانب عبد الله فقد ضيّق عينيه حتى كادتا تختفيان تحت جفنيه بينما غام وجه الخليفة وبانت غضونه. نظر إلى كاتبه نظرة مستفسرة وقد بدا واضحاً من قسماته بأنه لم يستمرئ سعي كاتبه إخفاء الرسالة عنه. نهض عبد الحميد مجدداً وقد بدّدتْ نظرات الخليفة هدوء وجهه المستدير. سدّد نظرة إلى القاضي الذي بدا مصمت الملامح، متحجّر النظرات. ثم اتخذ أشد النبرات تجرّداً وقال: **"قدّرتُ أن ما قيل بحق أمير المؤمنين لا يليق أن يتجاوز لساني أمام مجلسكم الكريم".**

- اقرأ الرسالة ولا تدع منها حرفاً إلا جئتَ به.

أمره الخليفة بصوت ينضح بالثقة. تنحنح الكاتب وبدا متردّداً في تلاوة الرسالة:

- امضِ يا عبد الحميد.. آمرك بذلك!

انفرجت أسارير القاضي فيما شرع الكاتب بتلاوة الرسالة:

"أرى بين الرماد وميضَ جمر
فيوشك أن يكونَ له ضرامُ
فإن النارَ بالعودين تذكو
وإن الحرب أولها كلامُ
فإن لم يطفها عقلاء قوم
يكون وقودها جثث وهامُ
أقول من التعجّب، ليْت شعري
أأيقاظ أميةُ أمْ نيامُ؟
فإن كانوا لحينهم نياماً
فقلْ قوموا فقد حان القيامُ"

ما إن أنهى الكاتب قراءة القصيدة حتى سرى صمت في القاعة كأن من فيها من الرجال قد غادروها فجأة. طال الصمت وثقلَ وسط تنهدات الخليفة الذي اكتنف وجهه الغموض فيما راحت يده المزيّنة بالخواتم تتغلغل ببطء في لحيته. أحس عبد الله لسبب يجهله بأنه في منام قبل أن ينطلق صوت القاضي، فيجفل جميع مَن في القاعة:

- مولاي، إن الخطر محدق ولا يمكننا أن نصمّ آذاننا عن نداء إخواننا في خراسان.

ثم تدخّل الشيخ أبو يوسف، رجل مهيب الهيئة، ذو جفنين ثقيلين ولحية مخضّبة. وقد بدا من نبرته وثقته بأنه رجل له باع طويل في العلم:

- مولاي.. لو تلكأ سلفكم، الخليفة هشام بن عبد الملك في قمع ثورات الخوارج في العراق وتمرّد البربر في المغرب، لما بلغت الأمة أقصى اتساعها ولربما لما وصلت الخلافة إليكم.

وفي توزيع مسبق للأدوار، تدخّل القاضي مجدداً. التفتَ مسدّداً نظراته نحو الحاضرين:

- البارحة بعد الغسق بقليل، رأيت في منامي كأن عاتكة، زوجة الخليفة عبد الملك، ناشرة شعرها وواقفة على منبر رسول الله، وإذ هي منشدة أبيات من قصيدة الأحوص:

يا بيتَ عاتكة الذي أتعزّلُ
حَذَرَ العِدى، وبه الفؤادُ مُوكّلُ
إن الشبابَ وعيشنا اللذّ الذي
كنّا به زمناً نسرُّ ونجذلُ
ذهبتْ بشاشتُه وأصبحَ ذكرُه
حزناً يعلّ به الفؤادُ وينهلُ[1]

قطّب عبد الحميد بين حاجبيه، وبدا قلقاً من خسارة المعركة أمام غريمه مجدداً. ألم يخسر أمامه في كلّ المرّات السابقة؟ ألم يقنع القاضي الخليفةَ غير مرة في فتح قونية وغزو الصقالبة واجتياح "مرة" وصولاً إلى نهر الروم؟

وبحركة تنمُّ عن الاعتداد بالنفس أشار القاضي ذو الكتفين العريضتين إلى العجوز الجالس بمحاذاة عبد الله أن يتكرّم بتفسير منامه.

حاول العجوز أن يقف لكن ركبتيه لم تساعداه. فتدخل الخليفة قائلاً: **"تكلّم وأنت جالس يا أبا قصي.."** تمتم أبو قصي شاكراً لكن أحداً لم يسمعه. شرع العجوز بتفسير المنام بصوت خفيض، الأمر الذي أكره الجالسين على زمّ عيونهم والانكباب للأمام:

- ما رأيتَه يا أبا عثمان ينذر باشتعال فتن وتبدّل حال بحال وزوال ملك عظيم. فعاتكة التي رأيتَها في المنام تجسّد عرش بني أمية. أما أن تتلو بلسانها قصيدة الأحوص الذي تشبّب بها على منبر رسول الله فذلك يفيد أن الخطب جلل والهلاك وشيك.

امتقع وجه الخليفة وتبدّدت صرامة ملامحه الصلبة. بدا لسبب غامض حزيناً ومتردداً. انتهز عبد الحميد لحظات التردّد تلك لكي يبادر في الكلام وقد اتخذ نبرةَ مَنْ عزم على عرض حديث متزن وهادئ:

- مولاي، إن تجربة الأخ أبـي يوسف الطويلة وعلمه الوافر مشهود لهما. ولا ريْب في أنه إن أراد إقناع سامعيه بأمر، تسنَّ له الأمر بسهولة فائقة. وقد صحّ قوله إن حزم الخليفة هشام في مواجهة الثورات قد حفظ الخلافة وأنقذ الأمة من الأخطار. لكنني أسألكم، أليس تمرد خراسان اليوم ارتداداً لقمع تلك الثورات وسحقها تحت سنابك الخيول بدلاً من معالجتها بالحُسنى والكلمة السواء؟!

صمت عبد الحميد لبرهة. رفع كوباً من الماء إلى شفتيه. شرب قليلاً. ثم استطرد بنبرة هازئة:

- أما بالنسبة لمنام سيدنا القاضي فإنني أسدي إليه نصيحة ألاّ يفرط في تناول العشاء كي يرى ما أراه في أحلامي.

وإذ حدجه الخليفة بنظرة مستفسرة فقد تابع قائلاً:

- منذ يومين، جاءني الرسول الأعظم في المنام. رأيته واقفاً على جبل عرفة ومخاطباً حشداً كبيراً من الناس، شيعة وسنة، عرب وفرس وربما خوارج: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً...)** [البقرة: 208] ثم أضاف: "إذا التقى المسلمان بسيفيهما، فالقاتل والمقتول في النار".

لمعت عينا الخليفة استحساناً، وأحسّ عبد الحميد بأن الأمور تجري كما يشتهي، فاندفع بثقة: "الحرب، مولاي، تجرّ حرباً وتزيد من الضغائن والعصبيات. فلندفع بالتي هي أحسن. فلندفع بالحق باطلهم، وبالحلم جهلهم وبالعفو إساءاتهم. **(... فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)** [فصّلت: 34].

لسبب غامض، أشرق وجه الخليفة. بدا كلام عبد الحميد المستند إلى الكتاب الحكيم مخرجاً مشرّفاً له من حرب لا يريدها. ثم ما لبث أن توجّه لكاتبه:

- وماذا أنت صانع في سبيل ذلك؟!

- سأخطّ كتاب سلام لقائد التمرّد، أودعه بلاغتي وخلاصة فكري. عهدي لكم، مولاي، أن قائد التمرد متى قرأه، بطل بلا ريْب تدبيره.

تململ القاضي في عباءته. علا صوته دافعاً بسبابته إلى الأمام كمن يقصد أن يفقأ عين غريمه:

- أيكون عرش بني أمية رهن دواتك أيها كاتب؟

- خيرٌ من أن يكون رهن طبائع السفهاء!

أفلتت العبارة الأخيرة من فم عبد الحميد بلا تفكير، ولم يعد بالإمكان سحبها.

حرّك القاضي شفتيه ليردّ بكلمات قاسية، لكن الخليفة أسكته بحركة من يده. ثم باغت الجميع متوجّهاً إلى ضيف عبد الحميد الجالس في آخر القاعة:

- وأنت يا عبد الله.. ماذا تقول؟

التفت الحاضرون إلى الرجل منصتين، فعدّل من جلسته واختار كلماته بعناية:

- أرى أن رأيَ القاضي يقوّي سلطانكم بين الناس فيما رأي الكاتب يزيّنكم في عيونهم، لكني أقول إن "عثرة الحرب لا تُستقال!".

كانت كلمات عبد الله هادئة لكن حاسمة للنقاش. إذ أنصفت، على قلتها، كلاً من القاضي والكاتب، وهيّأت في الوقت نفسه مخرجاً مشرّفاً للخليفة، الذي ما لبث أن أسند ظهره إلى طنفسة حمراء وقال:

- لقد قرّ قراري. فلنسعَ للصلح. إن عادوا إلى رشدهم، نكون قد حقنا دماء المسلمين، وإن أصروا على غيّهم، نتّبع سبل القتال سائلين الله في عليائه أن يهدينا إلى خيرنا ويجنّبنا بئس المصير.

♦ ♦ ♦

VI
(عام الحمار)

أرسل الخليفة مَن يأتي بعبد الحميد، فهرع الرجل في أروقة القصر وجلاً خائفاً، تتسارع دقات قلبه ويختلج وجهه بشتى أنواع الانفعالات. وها هو يقف في فرجة الباب منتظراً إشارة الخليفة ليدخل جناحه. وما هي إلا برهة حتى فُتح الباب على مصراعيه ودعاه حارسٌ حاد القسمات للدخول.

- تعالَ يا عبد الحميد!

هتف الخليفة بنبرة محايدة. ثم وسّع له مكاناً على وسادة كبيرة من الجلد. جلس الكاتب متمتماً:

- أرجو أن يغفر لي، مولاي. فأنا لم أخفِ رسالة نصر الثانية عن...

قاطعه الخليفة بإشارة من يده:

- يا عبد الحميد، أنا لم أدعُكَ لكي تقدّم لي أعذاراً بل لأستفهم منك عن الكتاب الذي تنوي إرساله للخارجي أبـي مسلم.

- ماذا عنه، مولاي؟!

- ما الذي يجعلك واثقاً من نجاح كتابك في إقناعه بالجنوح للسلم؟

- لطالما حملتَني قبل اعتلائكم العرش وبعده أن أسوّد رسائل تحثّ أمراء المناطق أن يلتحقوا بركب القتال. وقد نجحتُ في كل مرة رغم عدم اقتناعي بجدوى الحروب. اليوم، أسوّد كتاباً يحثّ على السلام وأنا موقن بأنه طريق الحق وسبيله المستقيم، فكيف لا أنجح؟!

فكّر الخليفة، وساد صمت لا تقطعه إلا قرقعات حبات مسبحة الكهرمان التي تتدلى من أصابعه. بعد لحظات، تساءل عبد الحميد:

- عندي سؤال ما فتئ يجول في خاطري؟

- تريد أن تعرف لماذا أخشى هذه الحرب دون سواها؟

- معاذ الله أن يخشى مولاي حرباً فُرضتْ عليه في سبيل إحقاق الحق ونشر إسلامنا الحنيف، لكني أشعر أنك غير راغب في إرسال جندك إلى خراسان رغم نبوءات قارئي الطالع والمنجمين الذين ما فتئوا يبشّرونك بنصر مظفّر وفتح عظيم.

لاذ الخليفة بتكشيرة هازئة:

- أولئك لا يبتغون إلا الارتزاق، وهم في سبيل ذلك يقلبون نواميس الطبيعة تزلفاً وتكسّباً. فالنجم الكبير الذي ظهر في برجي ليس سوى سوء طالع، لا حسن طالع كما يزعمون.

استحى عبد الحميد أن يسأله كيف له أن يميّز بين نجم وآخر، وهو لم يدرس النجوم ولم يقف خلف اصطرلابٍ في حياته. ثم أضاف أمير المؤمنين:

- للحق، أنا لا أريد هذه الحرب لكنني أخشى التاريخ وما سوف يكتبه عني إن أنا أغلقت أذني عن قرع طبولها. كما أنني أخشى أن يكتب الله علي الشقاء ويتمّ ضياع البلاد على يدي.

- أنت لا تغلق أذنيك مولاي، بل تطلق العنان لمزامير السلام في داخل نفسك. كما أن دمشق محروسة بإذن الله وإرادته.

بلع الكاتب ريقه وأضاف:

- ولا ريْب أن التاريخ سيذكرك كرجل سلام. لعلها ليست مصادفة أن نكونَ على مشارف عام الحمار[2]، عام البعث والتجدّد الذي سيكون بإذن الله على يديك.

أطرق الخليفة وقد راق له كلام كاتبه. وما هي إلا هنيهة حتى أزيحتْ حاشيةُ الستارة وأطلّت نجْمة، ترتدي ثوباً أسود يكشف نحرها وذراعيها وتضع في رجليها نعلين من الحرير. مشت فوق السجاد من غير جلبة وأحاطت من الخلف عنق سيدها وألصقت خدّها الورديّ بلحية مشذّبة بعناية. وإذ غمر الدفء وجدان الخليفة جرّاء حضور جاريته الأثيرة فقد أدرك عبد الحميد أن عليه الانصراف.

- استأذنُ مولاي..

ردّ الخليفة وهو يصهر خصر محبوبته:

- نلتقي غداً على المأدبة. لا تنسَ أن تدعو ضيفك، عبد الله.

ما أن لفظ الخليفة الاسم حتى رفعت نجمة رأسها في اهتمام، لكنها انتظرتْ أن تسمع صفق الباب حتى تتمدد بجانب مروان وتسأله وهي ترسم خطوط عنقه بأصابعها:

- كيف كان اجتماعك اليوم؟

يجيبها وهو يقبّل شحمة أذنها:

- كان اجتماعاً صاخباً. للحظة كاد ينجح أبو عثمان بإحراجي ودفعي لإرسال الجند إلى خراسان لولا حنكة عبد الله، ضيف عبد الحميد، الذي استطاع بكلمات قليلة أن يهدّئ من سورة القاضي ويجد لي مخرجاً لائقاً.

ومن دون أن تتوقّف عن تحسّس يد سيدها سألته بدهاء وبنبرة لا مبالية:

- ومن تراه يكون ذلك الضيف؟

- مفكّر، موفور النبوغ وجامعُ علم زمانه. نقل عنه عبدُ الحميد مأثرة بأن حضر ذات يوم خلافاً بين رجلين يتكلمان العبرانية. وإذ أُستدعي بعدها ليشهد أمام القاضي فقد نقل حوار المتنازعيْن كلمة بكلمة من الذاكرة مع أنه لا يتكلم لغتهما.

فتحت نجمة عينيها على اتساعهما، ورفعت حاجبيها العريضين. قالت وقد زادت كلمات الخليفة من فضولها لسبر أغوار الرجل:

- يا لعبد الحميد.. ومبالغاته!!

♦ ♦ ♦

VII

بعد أَذان الظهر، نُصبت مائدة كبيرة في حديقة القصر، فامتدت عشرات الأطباق المؤلّفة من لحم الضأن وأفخاذ الحجل والدجاج الممزوجة بالخلِّ ومرق الثوم. وما هي إلا هنيهة حتى حضر الخليفة يرفل بعباءة بيضاء ويحفّ به عدد من ضبّاطه المخلصين. وإذ دعا الحاضرين وهو يبتسم بكل محيّاه إلى الجلوس فقد التفوا حول المائدة وراحوا يهبرون، مشمرين عن سواعدهم، ما طاب لهم من الأطعمة. أراد عبد الحميد أن يراضي القاضي أبا عثمان الذي يجلس إلى يمينه فمدّ يده إلى قطعة لحم شهيّة وقدمها إليه. ابتسم القاضي. تناولها برضى، وهمس "أعزّك الله". فجأة توّقف أمير المؤمنين عن مجّ حسائه. تطلّع نحو كاتبه، وسأله بنبرة محايدة: "أين ضيفك عبد الله، أما دعوته للغداء؟".

رفعت نجمة التي تجلس مع النسوة في آخر المائدة رأسها وانتظرت بهدوء رد عبد الحميد الذي تسمّرت يده الممسكة بقطعة من اللحم. قال بارتباك جلي: "أعز الله أمير المؤمنين. ليس عبد الله اليوم للكرام أكيلا لأنه مزكوم، والزكمة برأيه قبيحة الجوار، مانعة من عشرة الأحرار".

قطّب الخليفة بين حاجبيه وأمر خادمه بنبرة طبيعية أن يذهب إلى حجرة عبد الله ويدعوه في الحال. وما هي إلا دقائق خمس حتى دخل عبد الله. ألقى تحية الإسلام من دون أن يبدو عليه أيّ أثر للزكام. فحدج الخليفةُ الكاتبَ بنظرة عتب. ثم رفع عقيرته في الكلام وقد بدا جليّاً أن مزاجه قد تكدّر: "دعونا أديبنا إلى مائدتنا لأنه يشرّفنا، لكن يبدو أننا لا نشرّفه فلم يلبِّ دعوتنا!".

أجاب بابتسامة ملطّفة:

- أيّد الله أمير المؤمنين ومدّ ظلّه على الأرض. للحق، أنا لم آتِ إلى الشآم إلا لكي أتشرّف بمصافحة يدكم الكريمة. وقد منحتموني هذا الشرف في الأمس. واليوم إكراماً لكم آثرت ألا أنضمّ لمائدتكم.

توقّف القاضي عن تناول الطعام وأعطى أذناً صاغية للحوار. وكذلك فعلت نجمة.

- كيف ذلك؟

- أنبأني إرهاق جسدي المفاجئ وارتفاع حرارته بزكام. فخشيت أن ألبّي دعوتكم وأنقل لكم ولصحبكم الزكام، فأسيء بذلك لمن أكرمني وأخطئ بحق من أحسن إلي.

وجم الخليفة ولم يبدُ مقتنعاً بذريعة ضيفه. سأله بأكثر النبرات ودّاً:

- أعرف أنك لا تقول الحق. هلّا أخبرتني بالسبب الحقيقي!

توقفت الأيدي عن التنقيب في الأرز عن اللحم والمرق وسدّد الجميع نظراتهم نحو الرجل ذي اللحية الخفيفة والعمامة البيضاء. بدا القلق جليّاً على محيّا عبد الحميد. رفع كفّه وراح يمسح بطرف كمه العرق المتفصد على جبينه. إذ لم يكن يخشى شيئاً في تلك اللحظة إلا أن يبوح عبد الله بالسبب الحقيقي لعدم تلبيته دعوة الخليفة للغداء.

وبنبرة محايدة وبنظرة محدّدة:

- نعم، هناك سبب آخر!

- أفصحْ ولا تخشَ شيئاً!

أعاد القاضي لقمة كانت في يده وحبس المدعوون أنفاسهم فيما ترصّدت نجمة شفتيْ الرجل:

- عندما رأيتُ الفساد مستشرياً في الأمة ورأيت أمراء الأقاليم يختلسون الضرائب ويقتطعون الأراضي بغير حق، عزمتُ على وضع كتاب موجّه للحكّام على أن يكون وافياً جامعاً لضروب الإصلاح. إذ عندما يصلح معشر الحكّام، تستقيم أمور الأمة وتنعم الرعية بالرخاء.

صمت عبد الله لبرهة. حدّق إلى عينيّ الخليفة فوجد نظراته المتفرسة لا تنتهي. ثم أضاف بأشدّ النبرات تجرّداً:

- ولما كنتم أنتم على رأس هذه الأمة فقد قدّرتُ أنكم أول من ستطالهم أسهم النقد في كتابـي. وليس من شيم الكرام أن يأكلوا من أطباق مَن عزموا على انتقادهم!

ساد صمت يشبه صمت القبور فيما ظلّ الخليفة ساكناً في موقعه. تبعث نظراته الرهبة في النفوس. شوهدت نجمة تتحسّس عنقها الوردي ورُئي عبد الحميد يضرب رأسه براحة يده. ولعلّه تمتم في سرّه: "لقد كان الخليل الفراهيدي محقّاً حين قال إن عبد الله متهور رغم سعة اطلاعه، وعلمه أكبر من عقله". وما هي إلا برهة حتى تهيّأ للدفاع عن صاحبه. بيْد أن الخليفة حدجه بنظرة حازمة أحبطتْ مسعاه. ثم نهض مروان بن محمد ومشى خطوات وئيدة باتجاه عبد الله وسط النظرات الحائرة للحرس الذين تحسّسوا سيوفهم استعداداً لتلبية الأوامر.

يقول الرواة إن الخليفة لم يكن رجلاً متسامحاً مع منتقديه بل على العكس من ذلك تماماً. فقد رُويَ عنه بأنه نبش قبور أخصامه لصلبهم. كما أنه انتقم من معارضيه بأبشع الطرق. إذ كان يلف على أصبعه منديلاً ويرصّ أعينهم حتى تسيل. فأي مصير سيكون لعبد الله؟

سأل الخليفةُ ضيفَه عن اسم أبيه، ولم يفهم أحد مغزى سؤاله إلا نجمة. وإذ أجاب ابن المقفّع بلهجة مستغربة "دازوَيه!" فقد فتح الخليفة ذراعيه وضمّ الرجل إلى صدره ضمّة قوية. استعادتْ نجمة أنفاسها ولمعتْ عينا عبد الحميد في حبور، فيما تبادل الحرس نظرات مشدوهة. أما عبد الله فقد غمغم بكلمات لم يسمعها إلا أمير المؤمنين:

"أفضل الملوك من لا يخالطه بطر ولا يستكبر عن قبول النصيحة!".

♦ ♦ ♦

VIII

كان الوقت ليلاً وعبد الله أمام كاغده وأوراقه. يغمس ريشته في الدواة ويكتب على ضوء قنديل ذي زجاج معشّق. يتناهى إليه صوت رقيق:

- أخيراً تمكنتُ من تضليل الحرس والوصول إليك!

يتوقّف عن الكتابة. يطوف ببصره في أرجاء الغرفة بحثاً عن مصدر الصوت، فلا يلحظ شيئاً. فيشعل قنديلاً آخر معلّقاً على الحائط ويعاود الكتابة. يبدو شارد الذهن. أتراه توهّم سماع صوت نجمة لكثرة ما فكّر بها؟!

- ماذا يعني صمتك؟ أتريدني أن أعود أدراجي بعدما خاطرتُ بالوصول إليك؟

يضع ريشته فوق المنضدة وينتصب واقفاً كالممسوس:

- من؟ من أنتِ؟

تطلق ضحكة ناعمة من خلف ستائر النافذة:

- أنا من تضيء ليالي الشعراء، بي يهتدي عابرو السبيل وينشغل المنجمون وقارئو الطالع!

يجاهد في تهدئة نفسه ويهمس بنبرة حالمة:

- نجمة!

تطلق ضحكةً سرعان ما تكتمها:

- هلّا فتحت لي الباب ودعوتني إلى حجرتك قبل أن يراني أيّ من الحرس، فيجر ذلك الويل على كلينا!

يستغرب جرأتها. أتكون عيناً من عيون الخليفة؟ لكن أيعقل أن يرسل الخليفة محبوبته إلى حجرة رجل آخر؟ كما أن وجهها العذب لا يشي بأي شرّ. لكن منذ متى تشي الوجوه بما يختلج في الأنفس؟

تعقّب وكأنها تقرأ ما يجول في خاطره:

- لا تخشَ شيئاً. لستُ بحاجة لكي أتسلل إلى حجرتك لكي أنصب لك شركاً. يكفي أن أنقل للخليفة ما أعرفه عنك، حتى تُطرد من القصر في الحال.

يمسك أنفاسه فيما دقات قلبه تعلو وتتسارع:

- ماذا تعرفين عني؟

- أعرف أنك صاحب اللغة وإمام الرُواة..

ثم تضيف بعد صمت:

- وأعرف أن والدك سرق خراج العراق. فأصدر الوالي حكماً بضرب يديه حتى تقفعتا. وأنت تُعرف بابن المقفّع. وأعرف أنك تحرص على إخفاء ذلك عن أمير المؤمنين لكي لا يرتاب بأمانتك وحسن تربيتك.

ارتاع ابن المقفّع. أحسّ بأنه مقيّد وعاجز عن التفكير. تصبّب عرقاً حتى ابتل وجهه ومنابت شعره. سأل الطيف بنبرة مستسلمة:

- ماذا تعرفين بعد؟

تنهّدت المرأة عميقاً وقالت:

- الناس ينسبون إليك كثيراً من القصص الغريبة!

ثم رقّ صوتها:

- لكن لا تخشَ شيئاً. إذ منذ أن تلاقت نظراتنا في الزقاق وبعدها في الحديقة وأنا أحلم بأن تتحوّل تلك النظرات الصامتة إلى كلام. زاد شغفي بك عندما جأرت بالحق في قاعة العرش. لكن جرأتك، وأنت تقول للخليفة بأنك لن تأكل من مائدته لأنك عازم على انتقاده هي أكثر ما شدّني إليك. إذ لم يعرف القصر رجلاً وصلتْ جرأته إلى هذا الحد!

انفرجت شفتا ابن المقفّع. قال وقد أحس بفوح عطرها:

- أين جرأتي من جرأتك، يا نجمة!
- هيّا.. افتح لي الباب إذاً قبل أن يراني الحرس، فتصير جرأتي تهوّراً ويصبح إعجابي بك خيانة.

غالب دهشته وفتح الدرفة الخشبية. وما هي إلا برهة حتى تجسّد الطيف بامرأة وافرة القد، لا تخلو من امتلاء. شعرها مموّج على كتفيها وشفتاها حمراوان كعنب يُشتهى.

وإذ دنتْ منه فقد سمع وجيب قلبها وأحسّ بأنفاسها الرقيقة على وجنتيه. راوغ نفسه:

- أنت جارية الخليفة، ومثلي لا يأخذ ما ليس له.
- هو تملّكني عنوةً. أحلال عليه أن يأخذني بالحرب وحرام عليك أن تأخذني بالحب؟!

وامتدت الأيدي لتتلامس على ضوء مصباح واهن. أعقبها همسة من هنا وضحكة امرأة تدرك مقدار جمالها من هناك. تجرأ العاشق ومدّ يده إلى خصرها. ثم ألصق وجهه بوجهها ومرّر شفتيه حول ثغرها حتى كانت القبلة الأولى، قبلة طويلة وشهيّة.

هناك في حجرة نائية بين أشجار الحديقة الوارفة أعطته نجمة نفسها، منحته ما تاقت له ذاته منذ أن التقت عيناهما في الزقاق.

- جسدُكِ الساخن يلهب دمي!
- إنها نار العشق أيها المجوسي الحلو. فتماهى بي وعلّمني كيف تعبدون النار!!

♦ ♦ ♦

IX

فتح ابن المقفّع عينيه، جال ببصره في أرجاء الغرفة ولم يجد لنجمة من أثر إلا عطرها. طُرق الباب وسُمع صوت خادم عبد الحميد من خلفه: "سيدي صاحب الديوان، يدعوك إلى جناحه في الحال!". جفل الرجل ونهض خائفاً وجلاً. فهل لاحظ الحرس نجمة وهي تتسلل إلى غرفته أو رأوها وهي تغادرها مع خيوط الصباح؟

ها هو يسلك الرواق المفضي إلى الجناح مرتاعاً، رأسه حاسر وقلبه خافق في ارتياب. ابتسامة عبد الحميد الترحيبية وهو يتجاوز مدخل المقصورة، أفرغت روعه وبدّدت هواجسه. وإذ دعاه الكاتب بوجهٍ باشٍّ أن يتقدّم فقد جمع ابن المقفّع حاشية ثوبه وجلس على طنفسة نبيذية بجانب صاحبه الذي ربّت بود على ساقه وبادأه الحديث:

- تهوّرك أكسبك ثقة الخليفة لكنك لن تسلم في كلّ مرة!

وبنبرة هادئة وودّيّة:

- أيعدّ قول الحق في هذا الزمان تهوّراً؟

- لطالما عُدّ قول الحق تهوّراً في كلّ الأزمنة، إن الذين دفعوا حياتهم ثمناً لقول الحقيقة أكثر من أولئك الذين عُوقبوا لارتكابهم أفظع الجرائم!

- أنسكت عن قولها إذاً؟!

- لا، لكن من الأهمية بمكان أن نختار الوقت المناسب لقولها. نحن اليوم نعيش في زمن الخوف يا عبد الله. الخوف من الآخر على الذات. الخوف من التطوّر على القيم. الخوف من الفلسفة على الدِّين.

- إن لم نقلها اليوم، ونحن في زمن الثورات، فمتى نقولها؟

ردّ عبد الحميد بصوت هادئ:

- إن ما يحصل في خراسان ليس ثورة بل تمرد لن يتمخّض عنه إلا فوضى عارمة ومزيدٌ من الاضطرابات. الثورة قبل كلِّ شيء هي مشروعٌ، لا صدورٌ مشحونةٌ. الرسول الأعظم جاء بثورة لأنه كان يحمل مشروعاً متكاملاً. أما أن تجتمع قبائل اليمن وربيعة والخوارج والعباسيين والعجم في تحرّك لا يحمل مشروعاً غير مناوأة بني أمية، فلا يمكن وصف ذلك بالثورة.

- جمعتهم الرغبة في إرساء العدل وإصلاح أمور الناس!

- إصلاح أمور الناس لا يكون إلا في الاستقرار. كما أن العدل من دون مشروع لا قائمة له والناس إذا ما اندفعوا بغير مشروع عجزوا عن السيطرة على أنفسهم وليس بعد ذلك سوى الفتنة. والحال، حتى لو نجح المتمردون في إسقاط حكم بني أمية فإنهم لن يفعلوا أكثر من استبدال طغمة حاكمة بأخرى، لن تلبث أن تتبع السياسات نفسها التي هي موضع انتقاداتهم اليوم.

سكت الرجلان حين دخلت جارية زنجية بطبق فيها عناقيد عنب وحفنات زبيب وتين مجفّف. وما إن غادرت حتى نهض عبد الحميد وتوجّه إلى ركن من أركان غرفته. فتح صندوقاً مرصّعاً بالحجارة الكريمة وعاد بكاغد ذي غلاف أزرق. قال وهو يعاود الجلوس:

- أعرف أنك متعاطف مع المتمردين لأنك رجل فكر، ورجل الفكر لا يملك إلا أن يكون رجل ثورة. أنا مثلك، يا عبد الله، رجل ثورة. عقلي لا ينشد غيرها وقلبي لا يلهج إلا بها. بيْد أن ثورتي ليست في ساحة الشعب بل في دائرة المعرفة.

راح ابن المقفّع يقلّب أوراق الكاغد بتوقّد واهتمام. سُوّدت بعض صفحاته لكن معظمها لم تزل بيضاً، تنتظر مرور الريشة لكي تحوّلها إلى أفكار وأيام. قرأ ما دُوّن على الغلاف بخطّ الرقعة: "رسائل في الفكر والإيمان" من دون أن يدرك في صباح ذلك اليوم من عام 746م أن هذا الكاغد، برسائله الخمسين واثنتين غير المكتوبة بعد، سيعرف الحرق والغرق والتمزيق، لكنه سيجول أهم مدائن العالم الإسلامي ويكون له أثرٌ عظيم في تغيير مجرى التاريخ الإنساني.

- أفصحتَ لي أنك تنوي وضع كتاب تُصلح فيه معشر الحكّام. أما أنا، فأبتغي من وراء رسائلي هذه إصلاح حال الرعية وإرشادها إلى منابع العلم. إذ أن أكثر الشرور التي تصيب الرعية إنما تصيبها من الجهل.

فتّش عبد الحميد عن جرّة فخارية. أفرغ منها في قدح أمامه شربة ماء. ثم أردف بعد رشفة قصيرة:

- علّمتني تجربتي في القصور أن الإصلاح مستحيل حين تكون الرعية غير مؤهلة لتقبّل التحديث والأفكار الجديدة. ففكرتُ بوضع رسائل تحثّ على قبول الآخر وتؤسس لمصالحة بين الفكر الديني من جهة والعلم والفلسفة من جهة أخرى. إذ وحده العلم يعصم من التطرّف ومن دونه لن تساوي هذه الأمة شيئاً وسيستمر سفك الدماء.

بلع الكاتب ريقه. ثم أضاف:

- سأودع تلك الرسائل خلاصة فكري وعصارة مواهبي وستكون بلا ريْب أقرب ما كتبت إلى نفسي وأصدق تعبيراً عنها.

حرّك ابن المقفّع شفتيه ليقول شيئاً لكن صوت المؤذّن انطلق مجلجلاً معلناً حلول الصلاة، فنهض عبد الحميد ومشى نحو الجامع مسرع الخطى. ما إن غادر الرجل حتى حمل ابن المقفّع الكاغد بكلتا يديه. قلّب صفحاته بصمت وحين تأمّل الورق الأبيض اعترته مشاعر غريبة.

في هدأة المساء، التقى الرجلان مجدّداً. مشيَا في باحة الحديقة المغطاة بالحصى بين أجمة النخيل وأحواض الخزامى. الحديقة ساكنة إلا من صوت الجنادب وزقزقة القبّرات. سأله عبد الحميد، فيما القمر يتوارى خلف الغصون، إن كان لا يزال مصرّاً على العمل في دواوين الخلافة بعد كل ما رآه وسمعه في الأيام التي أمضاها في القصر. بدا ابن المقفّع حائراً لكنه أجاب:

- أرى ضرورة وضع كتاب يصلح معشر السلاطين، يكون موازياً لرسائلك التي ترمي من ورائها إصلاح أمور الرعية.

- فليكنْ! غداً، أفاتح الخليفة في الأمر، لقد أصبحتما صديقين الآن ولا أخال أنه سيرفض لك طلباً.

ابتسم ابن المقفّع ابتسامة ناعمة:

- وهل للسلاطين أصدقاء؟!

لاح فجأة طيف نجمة على النافذة المطلّة على الحديقة حيث يجلسان. وإذ لم يستطع ابن المقفّع إخفاء الحب الذي أطلّ من عينيه، قال عبد الحميد بلهجة ودّية:

- ما زلتُ أذكر قولكَ: النساء، كالطعام لا يأكله الإنسان إلا إذا جاع، والطعام سريع الفساد.

عرف ابن المقفّع أن مضيفه يغمز من ناحية نجمة، فعلّق بهدوء:

- سواء كانت تلك المرأة طعاماً فاسداً أم شهياً فإنني لن أمدّ يدي إلى صحن سواي.

تفرّس عبد الحميد في وجه صاحبه ثم انفرجت شفتاه عن ابتسامة غامضة. لم يستطع ابن المقفّع أن يتبيّن إن كانت تشير إلى أمر بعينه أم هي مجرد ابتسامة عابرة.

♦ ♦ ♦

X

يصهر العاشق خصر محبوبته في آخر الليل. يفكّر في صمته؛ "كم ليلة عشق ستتيح لهما دمشق؟". يلتقيان كلّ ليلة في هذه الغرفة النائية بين الأشجار الوارفة الأغصان. ما إن يهبط الظلام حتى يسرج ابن المقفّع مصباحه ويجلس أمام منضدة فوقها ريش ودواة. الكتابة وسيلته الوحيدة لتقطيع الوقت في انتظار محبوبته التي تتحيّن بدورها نوم أهل القصر لكي تتسلل خلسة إلى ذراعيه.

يهمس ما إن يراها "عيناك آسرتان". تهزّ كتفيها المكشوفتين في دلال وتضحك. يمرّر يده على جسدها ببطء. يلصق وجهه على بطنها ويضع شفتيه على السرة الغائرة مدغدغاً. بعد قُبلٍ ومداعبات، يميل بجذعه قليلاً إلى الأمام ويسألها:

- لم تقولي لي بعد، مَن أخبرك أنني ابن المقفّع؟

تعتدل في ارتباك:

- أخشى أن تعاتب صاحبك، إن أخبرتك!

يمتقع وجه عبد الله، لكنه سرعان ما يضحك لكي يشجعها على المضي في الكلام:

- كيف أعاتبه؟ وهو لا يعرف أنك نجمتي وحبيبة كل أيامي؟

تتابع نجمة:

- مريمة، جاريته، هي التي باحت لي بكل شيء عنك.

يجفل العاشق:

- لا تقلق، مريمة بئرُ أسراره. ولولا إلحاحي وثقتها بـي لما أخبرتني عنك أي شيء على الإطلاق! نحن صديقتان منذ الطفولة. وُلِدنا في القصر ذاته، وعاصرنا خمسة خلفاء.

- خمسة خلفاء!

ادّعى عبد الله التعجّب لكي يجرّها إلى الكلام:

- وُلِدنا في عهد هشام بن عبد الملك وترعرعنا في قصره لحين وفاته ومبايعة الوليد بن يزيد الذي وجدني في خدور حريمه. فأحبّني وجعلني جاريته الأثيرة. وإن ظلّ حبّه للغلمان يفوق أيَّ حب آخر. وقد أحضر لي من يعلمني الرقص والغناء والضرب على العود. لكن حكمه لم يطل لأكثر من سنة وشهرين. قتله الناقص يزيد بن الوليد الذي بويع خليفةً من بعده.

- الناقص؟

تضحك:

- لُقّب بالناقص لأنه أنقص أجور الجند. هو أيضاً أحبّني وجعلني مدلّلته.

تلحظ نجمة ابتسامة حبيبها. تظنّه ساخراً منها فتصمت. يتوسلها بالمداعبات أن تكمل، فتتنهّد في دلال. يرجوها فتتابع:

- مات الناقص بعد خمسة أشهر من توليه الحكم. فبويع إبراهيم بن الوليد الذي لم ألتقِه لأن فترة حكمه كانت قصيرة ولم تتجاوز شهراً ونصف شهر. إذ رفض مروان بن محمد مبايعته وزحف بثلاثين ألف فارس إلى دمشق وانتزع العرش لنفسه. فما كان من إبراهيم بن الوليد إلا أن خلع نفسه ودخل في طاعة الحمار.

- الحمار؟

تجيب ضاحكة:

- أمير المؤمنين الحالي يلّقب بالحمار. إذ معه، يقارب مُلْك آل أمية المئة عام، والعرب تسمي كل مئة عام حماراً. والحمار هنا يُجسّد البعث والأمل لأن حمار النبـي عزير بُعث بعد مئة عام من موته.

تستر نجمة نفسها بالحرام نصف سترٍ. تهمس في أذن صاحبها:

- كل ملوك الأرض أحبّوني ولم أر مَلكاً سواك!

ازدهى العاشق ونظر إلى عينيّ محبوبته اللوزيتين. قبّلها ولاذ بصدرها. بعد هنيهة، اعتدلت وأزاحت عشيقها برفق:

- أرغب في إطلاعك على سرّ!

اعتدل الرجل فوق السرير وأصغى إليها باهتمام:

- الخليفة يخشى أن يجتاز نهر الزاب، الفاصل بين الموصل وإربل، لمواجهة المتمردين في خراسان. وهو لم يجنح للسلم بسبب كلماتك بل خوفاً من الموت المحتّم.

وإذ عُرف عن الخليفة بأنه جبّارٌ في الوغى، يصل السير بالسرى، ولا يجفّ له لبد، فقد بدت كلمات نجمة مدعاة استغراب. تابعت نجمة بعدما تركت أصابعها الرفيعة والطويلة تستريح في كفّ صاحبها:

- أمر مروان منذ شهرين بنبش آثار تدْمر بحثاً عن كنز نادر قيل إن تدمر بنت حسان أخفته في مكان ما تحت الأرض. فما كان من رجال مروان إلا أن هدموا البيوت والمعابد بحثاً عن مبتغاهم. بعدما عملت معاولهم وأزاميلهم في الهدم، اهتدوا إلى سرداب ضيّق معتم يُفضي إلى غرفة تُسجّى فيه امرأة مسبوكة من الذهب الخالص. قدّروا أنها تمثّل ضريح "تدمر بنت حسان". ثم عثروا على صفيحة من نحاس تحت رأسها كُتب فيها بالحميرية: **"أنا تدمر بنت حسان بن أذينة بن السميدع بن هرم العماليقي، من دخل بيتي بحثاً عن كنز، أدخل الله على بيته المهانة والذل"**. عندما لاحت علائم الحرب في خراسان، غام قلب الخليفة وأخذت تراوده كوابيس لا حصر لها. جمع عرّافي دمشق وكاشفي الطوالع، وسألهم عن نتائج الحرب في خراسان، فلاذوا بمراصدهم وأجمعوا بأنهم رأوْا نجماً كبيراً في برجه. وهذا النجم الكبير ليس سوى حسن طالع ينبئ بنصر مظفّر وفتح مبين. لسبب غامض لم يستكن لنبوءاتهم بل زاده الأمر تطيّراً. سألني عن رأيي وأخبرته أن في الرقة راهباً مسيحياً يُقال إن لديه علم الزمان. مع طلوع الفجر، توجهنا إلى الرقة. ارتديت عباءة سوداء وتنكّر بدوره في زي بدويّ. سألنا عن الراهب في الرقة واهتدينا إلى مكانه بسهولة. في الدير، ومن خلف ستار أسود فاصل، سأل الخليفةُ الراهبَ:

- يا راهب! هل عندك علم الزمان؟

رد الراهب بصوت عالٍ كالنفير:

- عندي من تلوّنه ألوان!

- هل تبلغ الدنيا من الإنسان أن تجعله مملوكاً بعد أن كان مالكاً؟

أزاح الراهب الستارة وبان وجهه الشمعي ولمعت نظرات عينيه المتوقدتين. تفرّس في وجه الخليفة وقال:

- نعم!

- كيف؟
- إن كنتَ تحب الدنيا، فإنك عبدها ومملوكها!
- وما السبيل إلى العتق منها؟
- ببغضها والتجافي عنها.

أطلق الخليفة زفرة عميقة. مدّ يده داخل ثوبه وأخرج بدرة مليئة بالذهب، ما لبث أن رماها للراهب ذي القلنسوة المقلوبة الحوافّ.

- قلْ لي بصدق، أيها الراهب، هل أموت في سريري أم أُقتل؟

أعاد الراهب البدرة للخليفة باحترام وأجاب:

- تُقتل في بلاد السودان وتُدفن بلا أكفان!

أطبقتُ يديّ على فمي مرتاعةً. نظرتُ إلى وجه مروان، وجدته أصفر، لو جرحته بسكين لما سالت منه قطرة دم واحدة، بيد أنه ظلّ متماسكاً. تنهّد وتساءل بصوت به بعض رجفة:

- هل تعرفني؟

أشاح الراهب ببصره نحو مدخل الدير حيث ضوء الشمس الساطع المتسلل من الخارج:

- أنت ملك العرب، مروان بن محمد. ثم أعطاه في كتاب صفات الرجل الذي سيأخذ المُلك منه.

نهض الخليفة مشعّث الأفكار، مضطرباً، يكاد ينخرط في بكاء مرير. وفيما هممنا بالمغادرة، ترامت إلينا كلمات الراهب الأخيرة:

"مكتوب في اللوح المحفوظ عين بن عين بن عين يقتل ميم بن ميم بن ميم!".

وفهمنا أن الشطر الثاني يمثّل مروان بن محمد بن مروان لكننا لم نستطع أن نتكهّن مَن يكون عين بن عين بن عين.

فتح ابن المقفّع عينيه على اتساعهما. تساءل بلهجة متفكّرة:

- آه.. لذلك اهتم بمعرفة اسم أبـي!
- تماماً.
- يعني لو كان اسم أبـي "علاء" مثلاً، لهلكتُ في الحال.

ضحكت نجمة:

- بلا أدنى شك!

ضمّ العاشق نجمته إلى صدره وهو يفكّر بهوس الملوك في الانتصارات. همس كمن يكلّم نفسه:

- أيُّ نصر يُرتجى حين يكون الموت هو المنتصر الأخير وسيفه البتّار لا يخطئ فرائسه!

♦ ♦ ♦

XI

في ديوان القصر، انتحى عبد الحميد بضيفه جانباً. صرف مساعديه وتوجّه إلى خزانة خشبية ذات خطوط وأخاديد غائرة. أحضر رقوقاً من جلد الغنم ما لبث أن فردها أمامهما.

- هذا بعضُ ما أزمع على إرساله لأبـي مسلم، قائد المتمردين في خراسان.

راح ابن المقفّع ينقّل عينيه بين الكلمات. أدهشه عمق النص وحسن سبكه. فإذا بعينيه تدمعان وتعتريه قشعريرة عند نهاية كل مقطع. وما إن أنهى قراءة النص الذي لم يكن مكتملاً بعد حتى جمد في مكانه. حدّق إلى عيني صاحبه وهتف في ذهول:

- ما أروعك كاتباً! أكاد أجزم أن لا نصّ على وجه هذه الأرض يفوق نصك روعة وعمقاً وتأثيراً. فازدهى عبد الحميد لكنه حرص على الإضافة:

- .. إلا كلام الله في القرآن..

ثم أردف بلهجة متواضعة:

- كل ما أتمناه أن تتاح لي فرصة وضع رسائلي في الفكر والإيمان على هذا المنوال، فيكون تأثيرها عميقاً لما هو خير هذه الأمة..

- لِمَ لا؟! سوف يتسنى لك ذلك بلا ريب. إن كنتَ خلال أيام قليلة سوّدتَ تحفة أدبية نادرة كهذه الرسالة، فما بالك برسائل ستخطّها وأنتَ تتأمل النجوم بسكينةِ مَن لا يخشى نفاد الوقت أو طلوع الصباح.

ابتسم الكاتب في مرارة:

- بخلاف ما تعتقد يا صديقي، أنا لا أملك وقتاً طويلاً!

وجم ابن المقفّع. حرّك شفتيه لكنه لم يقل شيئاً. ثم وضع عبد الحميد يده فوق يد صاحبه وقال:

- هذه الدولة أوهن مما تظن؛ مجدها على شفا حفرة، وكل أمارات الأبّهة وعلائم القوة التي تتراءى لك هي قشور زائلة. ففي كل ناح ثائر وفي كل أرض خارجي. إن قلب هذه الدولة يا صاحبـي مهترئ، تتقاسمه الأحقاد والثارات التي لا تنتهي. في أي وقت يتمكّن فيه المتمردون من اجتياز نهر الزاب، سنهلك جميعنا هنا في دمشق، جنوداً وحكاماً وموالين.

زفر عبد الحميد. مدّ يده إلى داخل ثوبه الأسود الأنيق، وأخرج رسالة مطوية سرعان ما قدمها لصاحبه:

- أمورك حلّت..

فتح الضيف الرسالة بأناة وقرأ ما جاء فيها:

إلى أمير العراق.. يزيد بن عمر بن هبيرة حفظه الله ورعاه"
حق موصل كتابـي إليكَ كحقه عليّ.
إذْ جعلك موضعاً لأملٍ،
رآني أهلاً لحاجته وقد أنجزتُ حاجته فصدقه أمله.
الخليفة مروان بن محمد".

- رأيتُ أن تعمل في العراق ريثما تنتهي أزمة خراسان. بعدها أُعيدك إلى دمشق إن رغبتَ في ذلك.

بلع عبد الله ريقه بصعوبة؛ فكّر بنجمة والبُعد عنها. وإذ خشي أن تُفسد تلك الأفكار ما يشعر به من عرفان حيال مضيفه، فقد حرص على شكره بأكثر الكلمات صدقاً. ثم كان عناق طويل، لم يمنع الرجلان نفسيْهما من البكاء خلاله.

سأله ابن المقفّع إن كان بوسعه أن يرى الخليفة لكي يشكره على الكرم الذي أسبغه عليه. فأخبره عبد الحميد أن ذلك لم يعد ممكناً لأن الخليفة غادر إلى مكة لأداء فريضة الحج وزيارة قبر الرسول. فرِح ابن المقفّع في قرارة نفسه، إذ كان خجلاً أن تلتقي عيناه عيني الرجل الذي تبيت جاريته الأثيرة في الفراش الذي وهبه إياه.

♦ ♦ ♦

XII

إنها ليلة أخرى من ليالي دمشق الساحرة. تتكوّر فيها نجمة في حضن محبوبها. تبادله قبلات قصيرة دافئة وتمسّد لحيته بحنان، تاركة أصابعه تثبّت خصلات شعرها المعطّر خلف أذنيها.

- ماذا كتبتَ اليوم في غيابـي؟ تسأله وهي تلقي نظرة على أوراق متناثرة بجانب الدواة والريش.

يردّ وهو يتحسّس نمشاً خفيفاً على وجنتيها.

- قرأتُ باللغة الفهلوية منذ سنوات خلت كتاباً، هو عبارة عن حكمة في ثوب خرافة، ينطوي على حكايات وأقاصيص على ألسنة الطير والحيوانات. وها أنا ذا أعمل على إعادة كتابته باللغة العربية نقلاً عن الذاكرة.

- نقلاً عن الذاكرة!! قيل لي إنك شهدتَ عراكاً بين رجلين يتكلمان لغة لا تفهمها، ومع ذلك حفظتَ حوارهما عن ظهر قلب ونقلته كلمة بكلمة أمام القاضي.

ضحك ابن المقفّع ملء قلبه:

- تلك مبالغة. الدنيا كما يُقال يا نجمة إذا أقبلتْ على أحد أعارته محاسن غيره، وإذا أدبرتْ عنه سلبته محاسن نفسه.

- اقرأ لي شيئاً مما كتبت!

مدّ ابن المقفّع يده والتقط ورقة من بين الأوراق. قرأ قصة من باب الحمامة المطوّقة. فكّرت نجمة بعدما انتهى من سردها وعلّقت بالكلمات التالية:

- ذلك يفيد أن الغراب والظبـي والسلحفاة استطاعوا على صغرهم وضعفهم أن يتخلّصوا من مرابط الهلكة بمودتهم وتفوّقوا بذلك على الصيّاد الذي أُعطي السلاح!

هزّ ابن المقفّع رأسه موافقاً:

- وهذا هو حال طوائف الأمة الواحدة. لا تسلم من مكائد الأعداء إلا إذا تعاضدتْ واجتمعتْ على المودة والخير.

بعد هنيهة، اعتدل الرجل. نظر مطوّلاً في عيني محبوبته. ثم قال بنبرة خافتة:

- غداً.. أرحل إلى العراق!

فتحت نجمة عينيها، وتأملته صامتة. وحين تأكدت أنه لا يمازحها، عضّت بأسنانها على شفتها وانثالت من عينيها الدموع. عبثاً حاول العاشق تهدئة محبوبته. أحاطها بذراعيه وهمس مطمئناً:

- لا بد أن نلتقي مجدداً. الأيام تخفي للمرء ما تخفي، فما يبدو مستحيلاً اليوم يصير ممكناً غداً.

كان صوته يضفي حزناً على حزن ويستجلب ألماً على ألم. رجته بصوت متقطّع:

- خذني معك!

قال ممازحاً رغم انكساره وبصوت جاهد لكي يجعله مرحاً:

- أيسعدك أن أُدعى المقفّع ابن المقفّع؟!

ضحكت وسط بكائها، فمد راحة يده وتحسّس قطرات الدمع الساخنة على خدّيها:

- سأعود إليكِ. ثقي بـي!

هزّت نجمة رأسها في هزء من قسوة الحياة وعلت وجهها ابتسامة مرّة. حرّكت شفتيها لكنها لم تقل شيئاً. عيناها وحدهما هما اللتان تكلمتا.

قبل أن تغادر غرفته، خلعت عن رقبتها سلسلة ذهبية دقيقة تنتهي بآية الكرسي.

- لست أدري إن كنتَ ستعتنق الإسلام ذات يوم، لكن هذا أغلى ما أملك، والآية تدفع الشر عن الإنسان في كل الأحوال.

♦ ♦ ♦

مع خيوط الفجر الأولى جمع ابن المقفّع أوراقه ودواته ومطرته. امتطى صهوة جواده وانطلق يخبّ على مهل وسط النخيل السامق والأشجار الوارفة مندفعاً شطر العراق. يستدير بائساً بين الحين والآخر في اتجاه القصر. تسري في بدنه رجفة وتفيض من عينيه دموع. وإذ أخذ كل شيء في الابتعاد وتوارت شرفات القصر تماماً عن ناظريه راح يردّد بيتين شائعين لجرير، لم يكن لهما المعنى نفسه قبل أن تطأ قدماه القصر الأموي في دمشق:

إن العيون التي في طرفها حور
قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللُّب حتى لا حراك به
وهن أضعف خلق الله أركانا

♦ ♦ ♦

XIII

إسطنبول 13/11/2014

جانب البروفسور مراد شكير،

تحيّة طيبة،

أريد أن أشكرك عبر هذا الإيميل لدعمك وإشرافك على رسالة الماجستير في الفلسفة العربية. فمن المؤكد، أنه لولا دعمك ومساعدتك لي لما أُنجزت الرسالة بالشكل الذي أُنجزتْ فيه. من جهة ثانية، أرغب بمتابعة الدراسة وتحضير أطروحة الدكتوراه لكنني لم أهتدِ بعد لموضوع شيّق يحفّز على البحث وتغني نتائجه المكتبة الفلسفية. وعليه، سأكون شاكراً لك إن وجّهتني إلى موضوع محدّد وأعربت عن استعدادك للإشراف على أطروحة الدكتوراه أسوة برسالة الماجستير.

مع الشكر والاحترام،

محمد

♦ ♦ ♦

14/11/2014

عزيزي محمد،

لا حاجة لشكري. فالجهد هو جهدك في آخر الأمر. وأنت عملتَ بجدّ على دراستكَ وتناولتها بالنقد والتحليل العلميين. فكنتَ جديراً بإطراء اللجنة الفاحصة وتقديرها. وإذ يسعدني أن أشرف على أطروحتك الجديدة، فإنني أقترح أن تطّلع على رسائل إخوان الصفاء. فهي كنز فكري ثمين. تضاربت الأقوال في أهداف تلك الرسائل ومراميها لكنها ظلّت بمثابة حركة تنوير استمرت حتى العصر الحديث بتعبير المؤرخ الإنكليزي الشهير أرنولد توينبي. أما عن مضمونها فهي محاولة توفيقية بين الحكمة والشريعة وبين العقل والنقل. فتلك الرسائل ترى أن الأديان كلها في جميع العصور وعند جميع الناس يجب أن تتفق فيما بينها. وغرض كل فلسفة وكل دين هو أن تتشبه النفس بالله بقدر ما يستطيعه الإنسان. فهي بهذا المعنى تعدّ الأذهان لثورة فكرية عبر أخذها من كل مذهب فلسفي بطرف في سعي لتذويب جميع الخلافات والصراعات والنزاعات الاجتماعية.

وإذ اعتبر البعض أن تلك الرسائل موسوعة علمية ودائرة معارف فإن باحثين آخرين اعتبروها جملة من الفنون الممزوجة بالخرافات. أما من حيث أصحاب تلك الرسائل فإن الأمر لم يزل لغزاً تاريخياً كثرت الآراء حوله وتعدّدت التأويلات بسبب تعمّد الجماعة السرية

والكتمان. ورغم أن الرسائل توحي بأن جماعة وضعتها، فإن هناك اعتقاداً بأن واحداً فقط هو من وضع تلك الرسائل وقد كتم اسمه وتمثّل في جماعة.

مع المحبة، د. مراد شكير (مدير قسم الفلسفة والمنطق)

كتاب الكوفة

"كنا وقوفاً بالمِرْبَد، وكان المِرْبَد مألف الأشراف، إذ أقبل ابن المقفّع، فبششنا له وبدأناه بالسلام. فرد علينا السلام. ثم قال: أي الأمم أعقل؟ فنظر بعضنا إلى بعض، فقلنا لعله أراد أصله من فارس، فقلنا: فارس! فقال: ليسوا بذاك.
قلنا: فالروم. قال: أصحاب صنعة.
قلنا: فالصين. قال: أصحاب طرفة.
قلنا: فالهند. قال: أصحاب فلسفة.
قلنا: فقل.
قال: العرب. فالعرب حكمتْ على غير مِثال مثّل لها وآثار أثِرت. إذ أدّبتهم أنفسهم، ورفعتهم هممهم، وأعلتهم قلوبهم وألسنتهم..".
"العقد الفريد"

I

تحت سماء مبعثرة الغيوم كشعر رجل عجوز، دنا ابن المقفّع من سور ضخم بلون الرمال، تنوخ عنده الجمال وتستريح الخيول من رحلاتها الشاقة. دسّ قطعة ذهبية في يد الديدبان فيسّر دخوله الكوفة ولم يُكثر من الأسئلة. بعدها سار ابن المقفع على ظهر مطيّته وهو يرقب القوافل التي تحط رحالها. بعد مسافة قصيرة ترجّل ليقطف من نبتة صبار ثمرة. قشرها بخنجره ورفعها بهدوء إلى فمه. هب هواء ساخن مصدره الصحراء فتمايل سعف النخيل. الشمس مستبدة فوق رأسه والطرقات نار. وإذ لم يكن في عجلة من أمره فقد ذهب إلى مقبرة والتقى صديقاً له تحت التراب. بعدها مشى متباطئاً في شوارع الكوفة منقِّلاً بصره بين البيوت المتداعية والمصنوعة من القش، وبين الأسبلة الخالية من المياه. عبثاً يفتّش في صهد النهار عن جدران تبهج النفوس ونوافير تخدّر الأنفس كتلك التي رآها في دمشق.

أمسك بلجام جواده في قيصرية التجار وخطا متباطئاً وسط ضجيج الناس وأصوات الباعة والشارين. تطلّع إلى السلاسل والمسابح والأحجية والصناديق المعروضة للبيع ووزّع بصره بين بائعي الخضر والفواكه وبين بائعي القماش المنهمكين في قياس الأقمشة. وإذ اصطدم بصره في سوق المأكولات بالذبائح المسلوخة فقد سرت قشعريرة في بدنه. تابع سيره حتى دخل سوقاً تعرض دكاكينها أساور وعقوداً تتدلى منها حجارة كريمة. ذكّره نقاؤها عيني نجمة. حيّاه البائع حين طال وقوفه ودعاه للشراء. شكره بلطف ومشى درءاً للحرج. دخل سوق العطّارين، فقاده إلى سوق الحدادين حيث العمال الذين يشعلون النار ويطرقون الحديد حتى يطوعوه. هناك، استعلم عن دكان يُصلح فيه مركوبه فأُرشد إلى حانوت قائم بعد القنطرة.

حين أصلح مركوبه كان النهار قد استتب. دار بعينيه في السوق وقصد دكاناً يقدّم العصائر. طلب من عامل الدكان وهو فتى نحيل ماءَ الورد. فقُدّم له في جام كبيرة. شربه جرعة واحدة من فرط عطشه وطلب أن تُملأ مجدداً. وفيما كان يتناول شرابه بتلذّذ، ترامت إليه أصوات هائجة حفّزته على وضع الجام من يده والتوجّه بخطى مسرعة نحو مصدر الصوت. وما هي إلا بضع خطوات حتى ألفى نفسه وسط رجالٍ غاضبين يوسعون امرأة ملقاةً على الأرض ركلاً. وإذ لاحظ في عينيها نظرة استغاثة وفي ندهة صوتها رجاء فقد اقحم لا إرادياً نفسه وأخذ يحميها بجسده من الضربات المتتالية. فجأة هتف أحدهم بغضب وقد انتبه لوجود الدخيل "توقّفوا.. توقّفوا!!".

هدأ الجمع وانحنى ابن المقفّع لالتقاط عمامته عن الأرض، ثم وقف بتمهّلٍ. نفض الغبار عن ثيابه في وقار ومدّ يده للمرأة المنبطحة على الأرض. تردّدت، لكنها ما لبثتْ أن أمسكتْ بيده وتوارت خلف ظهره عن النظرات الغاضبة:

- هذه الجارية تخفّت في زي حرة وهربت من بيت سيدها. مَن تكون لتدافع عنها؟

تساءل شاب طويل، يحف به عدد من الرجال الذين تهتزّ لحاهم بنزق.

- ومن تكون أنتَ لتعاقبها؟!

ران صمت واشرأبت الأعناق ما إن فاه ابن المقفّع بتلك الكلمات. إذ لا أحد في الكوفة يجرؤ على تحدي رستم بهذه الطريقة الفظّة. خطا الشاب نحو الدخيل وسدد أصبعاً في وجهه:

- أخال أنك غريب هنا! أغرب عن وجهي وإلا حطّمتُ رأسك على أقرب جدار!

تسارعت دقات قلب ابن المقفّع لكنه لم يكن يريد أن يبدي خوفاً، فتحسّس عباءته وأصلح عمامته في هدوء. قال وهو يتفرّس في وجه غريمه:

- لست أبحث عن عراك هنا. كما أنني لا أعلم شيئاً عن هذه المرأة. كل ما أرجوه أن نرفع أمرها للقاضي، فيسوّي قضيتها بما يراه مناسباً.

قهقه رستم قهقهات مجلجلة وانطلقت صيْحات غلام قصير، لونه مكتوم وحجمه كفأر:

- هذا الرجل مخبول!

حرّك ابن المقفّع شفتيه ليرد على الغلام الفأر، لكنه فكّر أن من الفطنة أن لا يفتْحَ أكثر من نقاش.

- هذا آخر كلام عندي. لن أعطيكم هذه المرأة إلا في حضرة قاضٍ!

فكّر رستم مليّاً وخلص أن الرجل عنيد المراس. فبادر بلكمه على وجهه بكل ما فيه من عزم. وقبل أن يحاول ابن المقفّع الدفاع عن نفسه أفلحت كثير من الأيادي بجرّه على الأرض. فتمزّق ثوبه وسقط تحت ضربات الهراوات مغشياً عليه.

فتّش رستم ببصره عن الجارية. لم يجدها. اختفت وسط الجموع وهربت. ضرب رِجله بالأرض وهو يصيح غاضباً:

- هربت.. لقد هربت الجارية!!

♦ ♦ ♦

II

فتح ابن المقفّع عينيه وألفى نفسه في زنزانة ضيّقة يحيط به ثلاثة مساجين، ملامحهم غريبة وأشكالهم مزرية. تلمّس ثوبه الممزّق واعترته طمأنينة حين تحسّس رسالة الخليفة داخل الثوب. بعد وقت، فتح حارسان كهلان باب السجن وساقاه إلى قاعة في صدرها قاضٍ، حاجباه كثّان ولحيته شيباء مشذّبة. أصدر القاضي حكمه في نزاع رجلين حول ملكية ضيعة ونادى حاجبه على المتخاصمين في قضية الجارية وردة. سيق ابن المقفّع برفقة حارس فيما تقدّم رستم برفقة رجل قصير، ذي مئزر أسود. ثيابه الأنيقة تشي بالجاه والأهمية.

شرح ذو المئزر الأسود بكلمات غاضبة أن الجارية التي هربت تعود إليه وقد اشتراها من خوارزم بألفي درهم. ثم راح يحلف بأنه يحسن معاملتها ولا يرى مبرراً لهروبها.

قاطعه القاضي طالباً منه الانتقال إلى لبّ الموضوع:

- خلاصة القضية، أن رجالي تعرّفوا عليها وهي تحاول الفرار. أمسكوا بها ومنعوها من المغادرة لكنّ..

توقّف ذو المئزر عن الكلام. حدج خصمه بنظرة فاحصة، لا تخلو من ازدراء. ثم تابع كلامه:

- .. هذا الرجل اعتدى على رجالي وساعدها على الهرب..

هزّ القاضي رأسه ونظر إلى المتكلّم نظرة ملؤها الشك وقد ذهب به الظن أنه من غير الممكن أن يتعرّض رجلٌ لا توحي ملامحه بأي شرّ لرجال أبـي عبيد المعروفين بشدة بأسهم. ثم اعتدل القاضي وسأل المتهم عن اسمه وسكنه ومحل عمله.

- إنه ابن المقفّع.. والده سرق خراج العراق..

التفت المتهم بعينين لامعتين نحو رستم، مصدر الصوت، وارتسمت على وجهه بسمةٌ هازئة من دون أن يبدو دَهِشاً بالتعرّف عليه. فقد عمل مؤدّب صِبية في الكوفة ولا بدّ أن بعض الذين تجمهروا في السوق يعرفونه.

- أنا رُوزبة بن دازوَيه، أُعرف بعبد الله وأكنّى بأبـي عمرو، ولدت في "جور"، قرية الورد، وعشت في البصرة، مدينة العلم وعملت مؤدباً في الكوفة والرصافة ونيسابور.

أنصت القاضي إليه باهتمام. ثم طلب منه أن يدلي بدلوه:

- .. كنتُ أشرب ماء الورد في السوق حين تناهت إليّ أصوات صاخبة. ركضت ضمن من ركضوا لاستطلاع الأمر وألفيت نفسي وسط جمهور غاضب من الرجال تتشقّى أرجلهم بركل امرأة ملقاة على الأرض. وإذ لم يتبيّن لي أمر تلك المرأة فقد أسرعت أحميها من بطشهم. وطلبتُ من هذا الرجل أن يقودها إليك لكي تبتّ في أمرها لكنه رفض ولكمني لكمة قوية على وجهي قبل أن ينقضّ عليّ سائر الرجال ممزّقين ثيابـي شر تمزيق.

تحسّس القاضي لحيته المشذّبة وقال:

- كلماتك اعتراف بأن هروبها لم يكن ممكناً لولا تدخلك!

هزّ ابن المقفّع كتفيه:

- لم أتدخّل إلا حرصاً على العدالة التي تنادون بها!

- كان بإمكانك أن تتقدم بشكوى أمام متولي الشرطة، لا أن تسعى إلى تطبيق العدالة بنفسك.

تصوّر لو كلّ امرئ في الكوفة آثر تطبيق العدالة بنفسه.. ماذا سيحلّ بنا؟

تنهّد ابن المقفّع وانفرجت أسارير خصميْه:
- حكمي أن تعوّض على أبـي عبيد ألف درهم.
اعترض ذو المئزر الأسود:
- لقد اشتريتها بألفين!
أسكته القاضي بحركة من يده وتأمّل وجه ابن المقفّع الذي علّق بهدوء:
- لا أملك هذا المبلغ!
- تدفع ما تملك وتقضي عن كلّ خمسة دراهم يوماً في السجن.
ابتسم ابن المقفّع في هزء وراح يحسب على أصابعه الأيام التي عليه أن يمضيها في الحبس ووجدها ستة أشهر. استفزت القاضي لامبالاة المتهم، فامتعض وقطّب بين حاجبيه. انتبه ابن المقفّع لأول مرة أن القاضي أحول. فاستغرب كيف أنه لم ينتبه إلى ذلك من قبل.
- كم لديك؟
- لا شيء.
انتفض رستم. أراد أن يمسك غريمه بتلابيبه لكن الحارسين تدخّلا وحالا دون ذلك.
- في هذه الحالة، سآمر بحبسك سبعة أشهر!
قهقه ابن المقفّع:
- لا يمكنكم حبسي، حضرة القاضي.
صاح القاضي لفرط ما شعر به من مهانة:
- سأحبسك تسعة أشهر إذاً.. بل عشرة..
رفع ابن المقفّع رأسه. قال وهو يتحسّس ثوبه الممزّق:
- أنا في الكوفة للقاء الأمير يزيد بن هبيرة وأحمل له رسالة من خليفة المسلمين، مروان بن محمد.
وجم خصما ابن المقفّع وارتاع الحرس. أما القاضي فقد أغرق في التفكير وراحت عيناه تروزان المتهم متنقلتين من رأسه إلى لحيته ثم إلى سترته الممزّقة. أمر برؤية تلك الرسالة، فمدّ ابن المقفّع يده إلى داخل ثوبه وأخرج ورقة مطوية ما لبث أن قدمها إلى القاضي وهو يحدج خصميْه بنظرة تحدٍّ. قرأ القاضي الرسالة باهتمام. بلع ريقه وتحيّر للحظة من دون أن يتمكّن أحد من معرفة ما يدور في خلده. وما هي إلا لحظات حتى أمر بإخلاء سبيل المتهم، ثم طلب من الحرس بنبرة حازمة:
- فليرافق إلى قصر الوالي في الحال!
أدرك خصماه بأنهما قد خسرا الدعوى. فهمهم رستم وهزّ رأسه في امتعاضٍ. أما أبو عبيد فقد جمع حاشية ثوبه وغادر القاعة متململاً.

♦ ♦ ♦

III

انحنى الحاجب في ردهة القصر على أذن الأمير الذي التفت نحو المدخل حيث القنطرة المزيّنة بنقوش وزخارف تمثّل عصافير متقابلة. لمح رجلاً برداء ممزّق، منظره مزرٍ وهيئته تدعو للرثاء. ارتاب في أمره وشكّ أن يكون ذلك الدرويش مبعوثاً من قبل الخليفة، لكنه حين فضّ الرسالة ووجدها ممهورة بخاتم الخلافة، تراجع شكّه وتقدّم فضوله. فأشار لحرّاسه أن يأذنوا له بالدخول.
تقدّم ابن المقفّع في وقار. حيّا حاشية الأمير المتمدّدين فوق الوسائد العريضة أمام عراجين بلح وفناجين صغيرة. لم يردّوا التحية بل حدجوه بنظرات ازدراء من رأسه حتى أخمص قدميه متوقفين طويلاً عند سترته الممزقة. رجل واحد، كرشه كبير وكتفاه ضيّقتان هتف بصوت غليظ لا يخلو من استهانة:

- هاتِ ما لديك من أبيات!

تنحنح ابن المقفّع وقال بنبرة متكدّرة:

- لست شاعراً هنا ولا درويشاً، بل رجل حكمة، وقد جئتكم ناصحاً مشفقاً عليكم. والحكماء لا يتكسّبون بالشعر ولا يكيلون الثناء للأمير وحاشيته لأنهم أغنياء عنهم بالعلم، وليسوا هم بأغنياء عنهم بالمال والسلطة!

ثم حدج الأمير بنظرة اعتداد:

- ومن علامات الحاكم البصير أن يعرف أولئك الحكماء وينتفع برأيهم وإخلاصهم للحق. فيفتح لهم أبواب قصره ويوصدها دون مدّعي الولاء في الأفواه الكاذبة!

وإذ أحس الحاضرون بأنهم قد أهينوا فقد همهموا عابسين، بيْد أن الأمير أسكتهم بإشارة من يده ودعا الضيف للجلوس بجواره على وسادة عريضة من الحرير. وإذ جلس الضيف ربّت الأمير على ساقه ورفع عقيرته متوجهاً إليه:

- الذين أهنتهم للتو هم رجالي. وهم مثلك رجال علم ومعرفة!

تنهّد ابن المقفّع واعتذر من الحاضرين الذين ما لبثوا أن هزّوا رؤوسهم، وقد بدا جلياً من سحناتهم بأنهم تفهموا أمره. استفهم الأمير من ابن المقفّع وعرف بأنه كاتب. اختار حبة كبيرة من التين وقدمها له وهو يتوجّه للحاشية:

- أبو عمرو أصبح واحداً منّا وهو يرأس منذ هذه اللحظة ديواني.

رحّب الحاضرون به هذه المرة. وتكلّم الرجل ذو الكتفين الضيّقتين:

- ألا تنظم الشعر يا أبا عمرو؟

- ما يأتيني من الشعر لا يروق لي. وما يروق لي من الشعر لا يأتيني.

هزّ السائل رأسه متفهّماً وقضم ابن المقفّع حبة التين في هدوء، تاركاً سكرها يذوب بين لسانه وسقف حلقه. ثم سرح بصره متأمّلاً من النافذة كهلاً يقلّم الأشجار في حديقة القصر. وما هي إلا برهة حتى نادى الأمير على هشام. فحضر صبـي نحيل ذو عينين سوداوين ووجه مستطيل يشي بشيء من المكر. توجّه إليه الأمير:

- أبو عمرو صاحب الديوان منذ هذه اللحظة. أطعْه في كل شيء ولبِّ مطالبه.

هزّ الصبـي رأسه ولم يتفوه إلا بجملة واحدة كرّرها مرتين:

- بأمر مولاي.

- لهشام أروع خطّ في الكوفة. آمل أن يساعدك ويسهّل مهمتك.

هزّ ابن المقفّع رأسه في امتعاض، وقد حدس أن الصبـي لن يكون غير عين للوالي في الديوان.

غادر هشام والتفت الأمير صوب حاجبه:

- أرشد ضيفنا إلى مقصورته وانتخب له من خدور النساء امرأة تليق به.

لم يعلّق ابن المقفّع لكنه فكّر بنجمة ومنّى نفسه بجارية تحاكيها. فتنسيه ما يقاسيه من لوعة الشوق وتطفئ نار الهوى في داخل نفسه.

♦ ♦ ♦

IV

تساءل ابن المقفّع، وهو ينظر إلى ما يخطّه هشام على الرقعة أمامهما في الديوان:

- من أين لك هذا الخطّ الجميل!؟

رسم هشام على وجهه ابتسامة متواضعة. حكّ عنقه في ارتباك وهو يثني رجليه تحته، ثم مال بجذعه وقصّ حكايته. كان والده نجّاراً ينشر القطع الخشبية. يطعّمها بالصدف ويزيّنها بأخاديد تمثّل وريقات وعصافير. بدأ بتعليمه أصول المهنة حين بلغ الثامنة. بعد سنة صار يميّز بين خشب الجوز والصنوبر وغيرهما من أنواع الأخشاب، كما صار يعرف كيف يدقّ المسامير من دون أن يثنيها، ومن دون أن تسقط المطرقة على أصابعه. لكنه سرعان ما اكتشف بأن مهنة أبيه لا تناسبه. قبل أن يكمل هشام حكايته صبّ لصاحبه ولنفسه جرعة كافية من عصير اللوز من جرة أمامهما على المنضدة.

- صرتُ أتسرب من ورشة أبـي وأمضي ساعات عند أبـي ليلى الورّاق. يدرّبني على حرفته ويعلّمني بكثير من الأناة كيف أربط الأوراق المفروطة وأخيط كعبها وكيف أدبغ الجلد وأقصّه وألصقه في الكتاب. مع الأيام، تعلّمت القراءة والكتابة وصرت أجرؤ على مسك الريشة وكتابة العناوين بل ونسخ كل ما يقع تحت يدي من نصوص. هكذا ذاع صيتي في الحي وصار الأهالي يقصدونني رغم صغر سني طالبين مني أن أكتب الرسائل لأقاربهم وأصدقائهم في الشام وخراسان.

- وكيف وصلت إلى القصر؟

- ذات يوم، قصدتْ بنت الأمير وخادمتها دكان أبـي ليلى الورّاق. طلبت مني أن أجمع رزمة من الأوراق المفروطة في كتاب. أمهلتها حتى اليوم التالي لكي يتسنى لي الاطلاع على محتواها ونسخها إن وجدتُ فيها فائدة تُرجى. لكن أملي خاب حين فتحتُ الرزمة ورأيتُ الأوراق مسوّدة بلغة غريبة عجيبة، لم يتبين لي مصدرها. جاءتْ في اليوم التالي فوجدت أوراقها محفوظةً في مغلّف أزرق بلون صفحة البحر، أنيق وملمسه ناعم كالحرير. وإذ سألتُها إن كانتْ ترغب بوضع عنوان على الغلاف داهمتها المفاجأة:

- وهل تستطيع الكتابة؟

- بل أملك خير زمامها..

- إنجاز عظيم لصبـي في عمرك!

ارتبكتُ في خجلٍ واعترتني مشاعر جميلة نحوها. قالت بعد برهة أنها لا تعرف ماذا تحتوي تلك الأوراق لأنها مكتوبة بلغة أمها التي ماتت منذ سنة. وإذ كانت الأم تحيط تلك الأوراق باهتمام كبير فقد قررت الابنة أن تحفظها في كتاب يذكّرها بها.

- ما رأيكِ لو أخطّ اسم أمكِ عنواناً لهذا الكتاب؟

هزّت الأميرة رأسها في حبور وقد أعجبها، بلا ريب، أن ترى كيف يُكتب اسم أمها بالأحرف العربية. حين انتهيتُ من رسم العنوان، صاحت:

- يا لروعتك!

وإذ أفلتَ منها المديح بلا تفكير ولم يعد بالإمكان سحبه، اختجلت من نفسها. وضعت الدراهم أمامي على المنضدة وغادرت مسرعة الخطى تسبق خادمتها بخطوة أو اثنتين.

بعد أقل من شهر، ظهر رسول من القصر في دكان الورّاق. لم أكن موجوداً فطلب من أبـي ليلى أن ينقل لي أن أبا بهاء الكاتب يرغب في رؤيتي في اليوم التالي بعد صلاة الظهر. يمّمتُ شطر قصر الوالي ممنيّاً نفسي برؤية الأميرة أكثر من أي شيء آخر. في الديوان، أخبرني أبو بهاء، تغمده الله برحمته، بأن يديه صارتا ترتجفان لسبب يجهله ولم يعد بإمكانه مسك الريشة بإحكام، وقد سمع أنني أكتب وأقرأ وخطي واضح وسليم. لم يقل لي من أخبره، لكنني قدّرت أن الأميرة سليمة هي التي أخطرته بذلك. هكذا وصلت إلى القصر وشاء القدر أن ألتقي معلماً أريب مثلك.

شرب ابن المقفّع من كأسه، وسأله بمرح:

- لا تغيّر الموضوع. ماذا عن سليمة؟ هل رأيتها بعد ذلك أو كلّمتها؟

بدا أن هشاماً قد استحى، فابتسم ولم يحر جواباً.

هكذا تآلف الشخصان. توطّدت أواصر الإلفة بينهما وتصادقا، إذ اكتشف ابن المقفّع أن الصبـي، بعكس ما تعطي ملامحه انطباعاً، مهذّبٌ وقلبه أخضر. وإذ قدّر أن للصبـي مستقبلاً باهراً فقد صار يصغي إليه باهتمام، ويقدّر أفكاره، ويشجّعه على توسيع مداركه. أما هشام فبات ينتظر طلوع الضوء لكي يجلس بجانب معلمه في قاعة الديوان. تتعلق عيناه به، وتتأهب أذناه لسماع أقاصيصه وحكمته في الحياة.

V

كان القمر النحاسي في السماء بين هلال وبدر. تطلّع إليه ابن المقفّع واستحضر وجه نجمة. أنبأه حدسه بأنها تنظر إلى ضوئه الآن وتفكّر فيه. أغمض عينيه ببطء وأخذته سِنَة من النوم فأتته في المنام. ها هو يمشي وحيداً في دروب الشام؛ يدرك ضفة بردى، ويحدّق في مائه. يرى وجهها مرسوماً على صفحته وضّاحاً، عاجياً. يمدّ يده لكي يلمسه فتضطرب المياه ويختفي الطيف. يوقظه طرقٌ خفيف على الباب، فيُنزل المصباح المعلّق على الحائط ويسرجه. يفتح الباب الخشبي ويتعلق بصره بصبية في السابعة عشرة، عادية الوجه، بها امتلاء. ثوبها أحمر قان يكشف نحرها وذراعيها، وشعرها ناعم ينسدل على كتفيها المكشوفتين، فيما تضع في رجليْها نعلين مطرزين بأزهار صفراء. وإذ قدّر أنها الجارية التي انتخبها الحاجب له فقد دعاها أن تدخل. جلست على حافة السرير وراح بصرها يتنقّل بين مغلفات الكتب والريش والدواة فوق المصطبة. بعد صمت سألته عن اسمه. عبد الله. وأنتِ؟ عنّابة.

قدّرت أن مضيفها حيي، لا يعرف ماذا يصنع. فبادرت بلمس ذراعيه وتحسّس لحيته الناعمة. وإذ تذكّر نجمة وأثقله الشوق إليها، نظر إلى عنّابة بحنان. قبّل باطن كفها وأزاحها بلطف. فاجأها سؤاله: "هل أحكي لكِ حكاية؟" لم تفهم سلوكه. ضحكت. ولعل ألف فكرة مرّت في خلدها، ليس أسوأها بأنه عنين. "احكِ". قالت بنبرة فاترة.

"زعموا أن أربعة أصحاب. أحدهم ابن ملك، والآخر ابن تاجر والآخر ابن شريف من أتم الناس حسناً وجمالاً والآخر ابن حارث. كانوا جميعاً محتاجين، ولا يملكون شيئاً إلا ما عليهم من ثياب. وإذ مضوا إلى مدينة يُقال لها "مطون" فقد أقاموا في ناحية منها. قال ابن التاجر: العقل أفضل من كل شيء. عارضه ابن الشريف: بل الجمال. انتفض ابن الحارث: بل الاجتهاد خير مما ذكرتما. عندها، قالوا لابن الحارث أن يطلب لهم باجتهاده طعاماً. انطلق يعمل في حمل الحطب من أول النهار حتى آخره حتى كسب درهماً، اشترى به ما يصْلح أصحابه، فأكلوه. ثم كتب على باب المدينة: "اجتهاد يوم واحد تبلغ قيمته نصف درهم".

ولما أصبح الأصحاب الأربعة قالوا لابن الشريف: انطلق فاكسب لنا بجمالك بعض ما يقوتنا اليوم. فانطلق مفكّراً في سره وقال: لست أعرف شيئاً من الأعمال وأستحى أن يرجع إلى أصحابه بغير شيء. وبينما هو مهموم، مرّت به امرأة لبعض عظماء أهل المدينة، فأعجبها جماله. فأرسلت إليه جاريتها لكي تأتي به إلى منزلها. فخلا بها يومه كله في نعيم وسرور. فلما أمسى أمرت له بخمسمائة درهم. فلما قبضها توجه إلى أصحابه، وكتب على باب المدينة: "جمال يوم واحد بخمسمائة درهم".

فلما أصبحوا قالوا لابن التاجر: انطلق أنت، اليوم، واكسب لنا بعقلك وتجارتك شيئاً. فذهب ابن التاجر، فما لبث قليلاً حتى أبصر سفينة عظيمة في البحر، قد أرست إلى الشط، وقد خرج إليها أناس كثير ليشتروا ما فيها، فساوموا أصحابها. ثم قال بعضهم لبعض: انصرفوا عن بضاعتهم حتى تكسد عليهم

ويرخصونها علينا. فجاء ابن التاجر واشترى ما فيها بمائة ألف درهم. فلما بلغ القوم ذلك أتوه وأربحوه مائة ألف درهم، فأخذها منهم وأحال صاحب السفينة على التجار. رجع إلى أصحابه وحين مر بباب المدينة كتب عليه: "عقل يوم واحد بمائة ألف درهم".
ولما أصبحوا في اليوم الرابع قالوا لابن الملك: انطلق أنت، اليوم، واكسب لنا شيئاً. فذهب حتى أتى باب المدينة، فجلس على دكان بالباب. وحدث أن ملك المدينة قد مات في ذلك اليوم، ولم يخلف ولداً ولا أخاً ولا قرابة. فمروا عليه بالجنازة، وبصروا به لا يتحرك ولا يحزن لموت الملك. تقدّم منه شرطي وسأله: "ألا يحزنك موت الملك؟ فلم يجبه. فشتمه الشرطي وأخذه وحبسه.
ثم إنهم اجتمعوا ليملّكوا عليهم رجلاً يختارونه، فقام الذي كان أمر بالفتى إلى الحبس فحدّثهم بقصته، وقال: "إني متخوف أن يكون عيناً علينا لعدونا". فبعثوا إليه وأتوا به. سألوه من هو. فقال: "أنا ابن ملك أرض قورماه. توفي والدي، فغلبني أخي على الملك وأنا أكبر منه. فهربت منه حذراً على نفسي". وإذ عرفه من كان واطئ أرضهم فقد قرّروا أن يملّكوه عليهم. حين مرّ بباب المدينة أبصر ما كتبه أصحابه فكتب:
"إن الاجتهاد والجمال والعقل، وما أصاب المرء من خير وشر، فبقضاء وقدر. اعتبروا ذلك بما ساقه الله إليّ من الخير والسعادة".

- قصة رائعة.. بالفعل الجمال خير من الاجتهاد والعقل!!

قالت عنّابة بنبرة الواثقة. تأملّها ابن المقفّع مطوّلاً. استحضر فطنة نجمة وآثر ألا يسهب معها في الحديث. استدار منكفئاً على وجهه في الفراش وهو يتمتم: "طابت ليلتك يا عنّابة".

- طابت ليلتك، سيدي!

قالت وهي تغالب خيبة أملها وعجزها عن فهم رد فعله.

أغمض ابن المقفّع عينيه وسرعان ما غشيه النعاس ونام. تأمّلت عنّابة ذبالة المصباح وهي تتراقص أمامها ثم راحت تمشّط شعر خليلها بأصابع طويلة. فكّرت بتقبيل الغمّازة الصغيرة عند طرف فمه، ولكنها أحجمت. اكتفت بإحكام الغطاء حوله وقد أمضّتها، بلا ريب، فكرة ألا تثير النساءُ شهوةَ رجل بهذه الوسامة.

♦ ♦ ♦

VI

بعث الأمير بحاجبه لكي يأتي بابن المقفّع إلى قاعة الزوّار. وهي قاعة فسيحة مفروشة بالبسط، سقفها عالٍ وجدرانها مكسوة بالمعلقات من آيات قرآنية متداخلة وسيوف قديمة وخناجر مشغولة من الفضة. ما إن دخل ابن المقفّع القاعة حتى خفق قلبه وامتقع وجهه. دعاه الوالي بصدر منشرح أن يجلس بينه وبين رجل قصير عرفه ابن المقفّع في الحال. وما هي إلا برهة حتى أصلح الوالي عمامته وقال مشيراً إلى أحد ضيفيه:

- أبو عبيد، صديق قديم، تاجر وصاحب رأي. أظنّ أنكما التقيتما من قبل في ظروف غير مناسبة.

لاذ ابن المقفّع بتكشيرة وواصل الأمير كلامه:

- ولأنه صاحب مروءة مثلك يا أبا عمرو فقد جاء بنفسه لكي يقدّم لك الاعتذار ويقبّل كتفيك.

ثم التفت الأمير صوب أبـي عبيد قائلاً:

- عبد الله غنيّ عن التعريف. فهو معدن الفضل وسلطان اللغة. ولا بد أنه يقدّر خطوتك هذه إيما تقدير.

هنا تدخّل أبو عبيد متولّياً الكلام بنبرة هادئة توحي بقدرة هائلة على التبدّل بحسب مقتضيات الظروف:

- لو علم رجالي بأنك في الكوفة للقاء الأمير أو للعمل في ديوانه لما تعرّضوا لك بأيّ أذى. بل كانوا ليقدّمون لك الجارية التي دافعتَ عنها من دون أي مقابل. أليس كذلك يا رستم؟!

تمتم الرجل المديد القامة، ذو الثؤلولة في منتصف جبينه:

- بلا ريب سيدي. فتعاليمك واضحة. ضيوف الأمير ضيوفنا ولا يعدل مكانتهم في قلوبنا مكانة.

- أعزكما الله وجزاكما خير جزاء.

قال الأمير وهو يربّت على ساق ابن المقفّع الذي آثر الصمت، مكتفياً بهزّ رأسه بين الحين والآخر.

في تلك اللحظة دخلت جارية مسدلة الشعر مكشوفة الكتفين. وضعت أمام الرجال أوانيَ فيها تمر وبلح وتين. ثم سكبت القهوة في فناجين صغيرة مرسوم عليها طيور متقابلة تتوسطها ورود حمراء. مدّ الأمير يده والتقط حبة تمر كبيرة وقدمها بمودة لابن المقفّع الذي تناولها بأدب وقضمها.

- كيف هي عنّابة؟

تساءل أبو عبيد وقد رسم على وجهه ابتسامة مَن تعلّم باكراً أن الحياة مراوغة وانتهاز فرص. تجهّم ابن المقفّع غير مستمرئ أبداً مناقشة علاقته مع جاريته في العلن. فلم يحر جواباً وأدار رأسه متظاهراً بتأمل الجارية التي دخلت للتو. فتدخّل الأمير مداراة للحرج:

- ماذا دهاك يا أبا عبيد؟ الكتّاب قلّما يحبون التحدّث عن غرامياتهم على الملأ. كما أنهم لا يرون في الأمر مدعاة للمباهاة!

ثم أردف متوجّهاً لابن المقفّع:

- .. لا تستغرب سؤاله عن جاريتك. فهو من تكرّم وأهداني إياها قبل أيام من قدومك. وللغرائب، قدّر الله أن تكون من نصيبك.

- إن لم تعجبك، أبدّلها في الحال!

قال أبو عبيد. فحملق ابن المقفّع إليه والاحتقار ملء نظراته قبل أن تتسلّل تنهيدة حانقة من بين شفتيه.

♦ ♦ ♦

VII

فيما كان ابن المقفّع يقصّ على عنّابة حكاية السمكات الثلاث من باب الأسد والثور في كتابه كليلة ودمنة، ارتجفت شفتاها وأجهشت فجأة بالبكاء. وإذ لم تكن حكايته محزنة فقد توقّف عن القراءة. أحاطها بذراعيه وجذبها برفق نحوه جاهداً في تهدئتها. سألها ما بها لكن ذلك ما كان إلا ليزيد من نشيجها. هدأت بعد لحظات وسألته بأنفاس متقطّعة إن كان حقاً ينوي التخلي عنها وإعادتها إلى خدور أبـي عبيد. ابتسم ابن المقفّع وثبّت خصلةً من الشعر الكستنائي الفاتح خلف أذنها.

- لِمَ تقولين ذلك؟!

- هذا ما تتداول به النسوة في أروقتهن. سمعتكم فضّة تتحدثون بأمري في قاعة الزوّار وسمعت أبا عبيد يسألك إن كنتُ أروق لك أم لا. فظللتَ صامتاً.

ناست الشموع الصغيرة وأوشكت أن تنطفئ. شهقتْ عنّابة وأردفتْ:

- أعرف أنني لا أروق لك بيْد أنني أفعل كلّ شيء لكي أرضيك.

تناول ابن المقفّع يدها بحنان. ثم مرّ براحته على وجهها الذي لم يكن له نصيب كبير من الجمال. همس بنبرة رقيقة:

- بالعكس تماماً. أنت تروقين لي وأنا سعيد جداً برفقتك.

وانفرجت شفتاها لأول مرة عن ابتسامة هازئة، غير مصدّقة. كيف تروق له وهو يتأبّى ممارسة الغرام معها؟ اعتدل الرجل. نظر مطوّلاً إلى عينيها. بدت بريئة. فكّر بالقدر البائس الذي ساقها إليه. مسح دموعها بهدوء وأخبرها بأكثر الكلمات صدقاً بأنه لن يتخلى عنها أبداً ولن يسمح بإعادتها لمُلْك أبـي عبيد مهما حصل. صدّقته ولمعت عيناها من جراء السعادة.

- والآن.. حدّثيني عن أبـي عبيد؟

قال قاصداً أن يغيّر قليلاً مجرى الحديث. تنهّدت وزفرت وهي تغالب البكاء:

- مرابٍ، ذو ثروة جُمعت بشكل رديء، جشع لا يعرف الرحمة. قصره، الذي لا قرين له في الكوفة، مجمع فاتنات القيان وربّات البغاء. يتاجر في كلّ شيء. يبيع البشر عبيداً ويشتريهم إماء. وهو من خاصة الأمير الذي عهد إليه تحصيل المكوس والضرائب من تجّار الكوفة. وفي سبيل ذلك، أنشأ عصابة يقودها الملعون رستم، تجول في الأسواق مهدّدة الناس ومستولية على أرزاقهم.

فكّر ابن المقفّع. استحضر كلمات عبد الحميد حين حذّره من حاشية الأمراء وخواصهم فيما عنّابة تواصل كلامها:

- المرأة التي دافعتَ عنها في السوق تدعى وردة وهي إحدى جواريه!

دُهش ابن المقفّع أن تكون تلك الحادثة قد انتشرت في القصر وأصبح مشهوراً في أروقة الحريم.

- تحب شاعراً من قبيلة "باهلة"، تقيم في عرض الصحراء، في طريق الحج. كانت عازمة في ذلك اليوم للهرب معه، لكن رجال أبـي عبيد اكتشفوا أمرها وكادوا لولاك أن يحولوا دون نجاح مسعاها. صدّقني، لولاك لكانت اليوم في عداد الموتى. إذ سبق أن مات، في ظروف تدعو إلى الريبة، كثير من جواريه اللواتي حاولن الهرب.

تطلعت إلى خليلها. وجدته يزمّ شفتيه في جدية، فبدا لها أكثر وسامة.

- وماذا حصل بعد ذلك؟ هل تزوجتْ وردةٌ من حبيبها الشاعر؟

- لا أعلم. لِمَ الكذب؟ ما أعلمه أن الأمير إكراماً لأبـي عبيد أرسل جنده خلف وردة، لكن قبيلة الشاعر تضامنت معه وقتلتْ من الجند عشرين.
في الليلة التي تلتها التقيا مجدداً في جو من الحنوّ والدعة. تعب ابن المقفّع من القراءة والكتابة وأحاط خليلته بذراعيه قائلاً:
- اليوم لن أحكي لك حكاية. أريدك أنتِ أن تقصي حكايتك!
استنشقت عنّابة نفساً عميقاً. أغمضت عينيها كأنها تلملم شذرات حكايتها من ماضٍ بعيد. ثم راحت تحكي:
- وُلِدتُ في خوارزم، في بلدة صغيرة يكسوها الثلج في الشتاء، فيتحلّق الناس حول مواقدهم، يشوون الكستناء ويتبادلون قصصاً ساحرة عن عوالم بعيدة. كان لدي ثلاثة أخوة وأب، عيناه واسعتان خضراوان ولحيته كثة لكنها ناعمة الملمس. أما أمي فقد كانت سمينة وحنونة. كلما أغمض عيني أراها في ثوب أزرق، مقرفصة في صدر الدار إلى جانب كانون من الفحم. كنتُ صغيرة حين افترقتُ عنها.
فجأة توقّفت عن إتمام الحكاية. تنهّدت وقالت بأنها تشعر بشيء من التعب. لم يلّح عليها مواصلة الحكاية. فقد سمع عن حصار خوارزم وقدّر أن التفاصيل مؤلمة.
- لا بأس، تصبحين على خير! تمتم ابن المقفّع.
في الليالي التالية، جاءت عنّابة ووجدت خليلها قد جمع لها بعض الزهور البريّة. عانقته بحب وكوّنت من الزهور باقة ما لبثت أن وضعتها في إناء ملأته بالماء.
حين أويا إلى فراشهما، واصلت حكايتها من دون أن يطلب منها. "كنتُ أجلس على عتبة الباب. أملّس على قطتي الصغيرة وأتأمل الخراف على التلال. فجأة دوّت أصوات قوية ومخيفة وراحت تتساقط من السماء كرات من اللهب محدثة حرائق رهيبة في كلّ مكان. حاولتُ الدخول إلى البيت للاحتماء فوجدته يحترق. ناديت على أمي فلم ترد. لا بد أنها قضت اختناقاً في الداخل. وإذ سمع صراخي رجل عابر فقد عطف عليّ وأخرجني من دوائر النار التي كادت أن تلتهمني".
شرد فكر ابن المقفّع. انتابه إحساس غريب، كما لو أنه عاش لحظة مشابهة من قبل.
- وماذا حصل بعد ذلك؟
- سمعتُ أن خلقاً كثيراً قضوا في تلك الحرب، والذين نجوا صاروا جواريَ وعبيداً. أما أنا، فما أذكره أن الرجل الذي أنقذ حياتي احتفظ بـي لفترة وجيزة في بيته. بعدها عهد بـي إلى رجل آخر. ربما باعني، لست أعلم. ما أعلمه أن الرجل الثاني باعني لأبـي عبيد. فقد تحسّسا مفاتني بأيديهما الغليظة وتساوما على السعر أمامي.
فجأة حضرت نجمة في ذاكرة ابن المقفّع. تقبّل عنقه وترجوه أن يأخذها معه. لم تكن حكاية نجمة مؤلمة كحكاية عنّابة. فهي لم تُبَع ولم تُشترَ. وُلِدت في القصر من عبد أرمني وأَمة رومية. ثم ما لبث أن جعلها جمالُها مخطوبة الودّ ومعشوقة الملوك والخلفاء.
قطعت حبلَ ذاكرته يدُ عنّابة التي امتدت لتلامس وجهه ببطء. دنا منها، ألصق وجهه بوجهها ومرّ بشفتيه على طرف فمها وبادلها قبلة طويلة. ثم أمالها على الفرشة وغمرها بجسده على ضوء مصباح واهن يرسم على الجدار جسدين شبقين، يلتهم أحدهما الآخر مثلما يلتهم البحر قلوعه في يوم عاصف. حتى إذا ما هدأت الريح وألقت السفن مراسيها على الشطآن، سكن البحر ولفّ الكونَ سكونٌ تام. فلم يبقَ منه شيء سوى الصدى وجنين من فضّة القمر يتكوّر ببطء في أحشائها.

VIII

ما إن التقى ابن المقفّع مساعده هشاماً حتى ضمّه إلى صدره ضمّة قوية متمتماً بنبرة خافتة "رحمه الله.. إنها سنة الحياة". فقد رحل والد هشام. رحل هكذا من دون سابق إنذار. لم يشكُ من مرض. نام من دون علة ولم يستيقظ في الصباح.

أنهى هشام نسخ رسالة إلى أمير نيسابور بخطّ كوفي جميل. ثم اعتدل في جلسته. حدّق إلى عينيّ معلمه وقال له بنبرة خجلة:

- أريد أن أفشي لك سراً!

أنصت المعلم إليه باهتمام:

- أنت تخفف عليّ وطأة الأيام. تحنو وتغدق في محبتك لكنني لستُ جديراً بكل ما تقوم به من أجلي.

- لِمَ تقول ذلك، يا هشام؟

تنهّد الصبـي ثم زفر:

- بعض عملي هنا أن أراقبك وأنقل للأمير كلّ شيء عنك.

ولم يبدِ ابن المقفّع أي دهشة. ربّت برفق على كتف هشام:

- جميعنا يقوم بأعمال لا يرغب فيها. الحياة تفرض علينا أموراً كثيرة. المهم ألا نعتاد مع الوقت عليها ونجد لذة في إنجازها.

كان ذلك آخر ما قاله صاحب الديوان قبل أن ينهض ويغادر إلى السوق للقيام بجولته اليومية.

في اليوم التالي، استيقظ ابن المقفّع قبل طلوع الضوء. تابع من سريره ضوء القمر المنعكس على أطراف الغيوم. نهض متحسّساً طريقه إلى القنديل لكي يسرجه ومشى في رواق القصر حتى أدرك الديوان. ارتاع حين وجد هشاماً وحيداً، منكمشاً في الظلام، يميل بجذعه ويضع رأسه بين يديه.

- خير؟ ما بك يا هشام؟!

رفع الصبـي بصره متسلقاً جسد معلمه حتى وصل إلى عينيه. بلع ريقه وباح بمكنونات صدره:

- أحبها!

ابتسم صاحب الديوان وتساءل بمكر:

- سليمة، بنت الوالي؟!

هزّ الصبـي رأسه أن نعم.

- وهي؟!

- تحبّني أيضاً.

- كيف لك أن تعرف؟

- كلما التقينا في الرواق أو في حجرة الأمير تفتّر شفتاها عن ابتسامة رقيقة.

شهق هشام وعقّب ابن المقفّع:

- لا تنتحب هكذا كالنساء. فهي لم تمت! غداً أكلّم الوالي في أمركما. سيرضى بلا شك بك إن كانت هي راضية.

- لا.. لا تكلّمه!!

- لا؟!

- بلى.

قال هشام بنبرة تشي بالوله والافتتان.

♦ ♦ ♦

IX

عرف ابن المقفّع في الكوفة هناءة سابغة وراحة لذيذة. خصّص وقتاً كبيراً للقراءة والكتابة كما يحلو له ووضع في أيام الصيف الأخيرة كتاباً آخر إلى جانب كليلة ودمنة. أسماه الدرّة اليتيمة. لا شيء يكدّر مزاجه هنا في الكوفة، ولولا مراكب الذكريات لما تعكّر صفو زمانه مطلقاً، إذ ظلّت نجمة تأتيه في الصحو والأحلام. تناديه وتسكنه رنة الفرح في صوتها. أحياناً تأتيه في المنام باكية، ممسكة بساقيها فوق سريره في دمشق، تبلّل خديها قطرات دموع تسيل كاللؤلؤ. أما عبد الحميد فلم يكن يحلم به لكنه ظلّ في كل مناسبة يستحضر كلماته وهواجسه.

طُرق الباب وأطل هشام يحمل رسالة عاجلة من والي خراسان نصر بن سيار الليثي. فضّها صاحب الديوان في قلق وقرأ في سره الأبيات التالية:

أَبلغْ يزيداً وخيرُ القولِ أصدقه
وقد تبينتُ ألاّ خير في الكذبِ
بأن أرضَ خراسانٍ رأيتُ بها
بيْضاً لوَ افْرخ قد حدّثتُ بالعجبِ
فراخ عامين إلا أنها كبرتْ
لمّا يطرن وقد سرْبلن بالزغبِ
فإن يطرن ولم يُحتل لهن بها
يلهبن نيران حرب أيمّا لهبِ

توجّه الكاتب إلى ردهة الأمير مسرع الخطى. عبر رواق تزيّنه سُرُج مضاءة، وصعد درجات ثلاث أوصلته إلى الجناح الغربي للأمير. وإذ دلف إلى قاعة مفروشة بالبُسُط فقد وجد الأمير مزكوماً مستلقياً على الفراش تحفّ به ثلاث خادمات. ما إن لمحه الوالي حتى وسّع له مكاناً بجانبه عند حافة السرير لكن الشمس المتسلّلة من شق في الستارة سرعان ما أكرهته على تغيير مكانه. فجلس على كرسي خشبي مقابل سرير الأمير. غادرت إحدى الخادمات وعادت بعد برهة لتضع مبتسمة أمام الضيف تيناً مجفّفاً وتمراً. قال وهو يلتقط حبة تين يضعها في فمه:

- وصلتني رسالة من نصر!

غام وجه الأمير وتقلّصت شفتاه.

- خير؟
- يناشدك أن ترسل جندك لقمع ثورة خُراسان.

تفكّر الأمير مليّاً. تساءل بصوت مبحوح من أثر الزكام:

- وما رأيك أنت؟
- كل قضية فيها قتل تقبح في عيني مهما حسنت نتائجها. فأنا لا أرى العدل متحالفاً مع القتل.

حرّك الأمير رجليه لكي يتخلّص من خدر أصابهما. ثم أضاف:

- إن لم نقاتلهم اليوم يا أبا عمرو، سيقاتلوننا في الغد لا محالة!
- لن يقاتلونا! فعبد الحميد، كاتب الخليفة، حبّر كتاب سلام لهم، متى قرأوه بطل، بلا ريب، تدبيرهم.

لم يبدِ الأمير قناعة بكلمات كاتبه لكنه تمتم:

- فليهدِنا الله إلى خيرنا ويجنبنا بئس المصير.
- آمين.

ساد صمت. قطعته إحدى الخادمات بإحضار كوب من الماء للأمير.

- سيدي، عندي مطلب صغير.
- لبّيك!

قالها الأمير بصدق. إذ خلال المدة الوجيزة التي أمضاها ابن المقفّع في القصر، تصادق الرجلان وامتدت أواصر الود بينهما.

- هشام..
- مَن هشام؟
- الشاب الذي يعمل معي في الديوان..
- ما به؟
- يريد ابنتكم زوجة له!
- هشام؟! بنبرة لا تخلو من استنكار.

ولم يفت ابن المقفّع وجوم أميره:

- أعرف أن مطلبي غريب وغير متوقّع لكن للشاب مستقبلاً باهراً. فهو يقرأ ويكتب رغم صغر سنه. كما أنه نهم للمعرفة وخطّه من أجمل ما رأت عيناي.

لم تزل أمارات الذهول على وجه الوالي:

- أبو عبيد طلبها لابنه وقد وافقتُ.
- أنت خير العادلين ولا أراك مفضّلاً طالب مالٍ على طالب علم.

تفكّر الأمير لبرهة. ثم خلص إلى وعد:

- فليكن الخيار لها، وإن شاء الله يصير خير.

انفرجت أسارير ابن المقفّع وارتسمت على وجهه ابتسامة متأمّلة. ثم نهض بهدوء، قبّل رأس الوالي المكسو بالشيب وهمس متمنّياً له الشفاء وطول الجَدِّ.

♦ ♦ ♦

X

يروي الإخباريون أن القبائل المضرية واليمانية أعلنت الحرب على والي خُراسان، نصر بن سيار الليثي، وتمكنتْ من إلحاق الهزيمة به في مدينة مرو. بيد أن رجال القبائل سرعان ما اختلفوا فيما بينهم على تقاسم الغنائم وتقاتلوا في المدينة شر قتال. تعالى نصر على العصبيات القبلية وسوّد للمتقاتلين العرب في مرو رسالة جاء فيها:

أبلغْ ربيعة في مرْوٍ وإخوتها
أن يغضبوا قبل أن لا ينفع الغضبُ
ما بالكم تلقمون الحرب بينكمُ
كأن أهل الحجا عن فعلكم غُيُبُ
وتتركون عدواً قد أظلكمُ
فيمن تأشب لا دينٌ ولا حسبُ

لكن القتال استمر في مرو وقُتل من الفريقين خلقٌ كثير قبل أن تتمكن القبائل اليمانية من حسم الصراع لصالحها. وإذ أرسل نصر للكرماني، شيخ القبائل اليمانية، رسالة يدعوه فيها إلى التخلي عن عداوتهما القديمة والتحالف معاً لمواجهة متمردي أبـي مسلم فقد رأى الشيخ في الرسالة وهناً لدى نصر واستسلاماً. فما كان عليه إلا أن ردّ على رسالته بالاستيلاء على مدينة الرحبة بعد قتال مع الحامية التابعة لنصر. وبعد دخول القبائل اليمانية الرحبة، بعث الشيخ إلى نصر كتاباً جاء فيه "هلمّ حتى نتكاتب بالموادعة مثلما أردت".

شعر نصر أن الكرماني أخذه على حين غرّة. فشحذ همم قومه ونهض إليه في خلق كثير. حاصره في الرحبة وقاتله حتى قتله مع جماعته. ثم أمر بصلبه على مدخل المدينة. وإذ أحسّ اليمانيون بان كرامتهم قد أُهينت بصلب شيخهم عند مدخل الرحبة فقد التحقوا مع طوائف أخرى بثورة أبـي مسلم.

في ذلك الوقت، وقع كتاب مرسل من قبل الإمام إبراهيم بن محمد لأبـي مسلم بيد الخليفة مروان بن محمد. فتبيّن من خلاله أن الإمام إبراهيم بن محمد هو صاحب الدعوة العباسية. وإذ كان الرجل مقيماً عند أخوته بالحميمة فقد أرسل الخليفة من يقبض عليه في الحال. ولما جيء بإبراهيم إلى الشام، قال الخليفة ليس للرجل الصفات التي جيء بها في كتاب راهب الرقة. فردّ أعوانه في طلب المنعوت له وإذا بأبـي العباس وإخوته وأعمامه قد هربوا إلى العراق ونزلوا سرّاً في الكوفة.

♦ ♦ ♦

XI

جلس ابن المقفّع واجماً في غبشة الفجر. حسب الأشهر التي مرّت منذ وصوله إلى الكوفة فوجدها عشرين. قام من سريره من دون أن يحدث جلبة، انتعل جزمتيه وخرج إلى الطريق. تنسّم الهواء النقي ومشى في الدروب الملتوية حتى أدرك الأسواق فوجدها مقفلة. لم يدعُ المؤذن لصلاة الفجر بعد ولا صاحت الديكة. أدرك قنطرة الدبّاغين. تحجّر تحتها مستحضراً وردة، الجارية ذات القد السمهري، التي كانت ملقاة هنا على الأرض أمامه، تتوسّله عيناها وتتضرّعان له بينما تنهال عليها ركلات الرجال الغاضبين. ثم حضرت نجمة كعادتها، بوجهها الوضّاء، بصوتها، بعينيها، برموشها، بدموعها التي ترجوه أن يأخذها معه. أثقله الشوق إليها ومارت في داخله مشاعر متّقدة. فإذا بقلبه يخفق بسرعة وتسري ببدنه قشعريرة. دوّى فجأة صوت المؤذن، فكان الصوت حزيناً ومتوسّلاً. تطلّع إلى المداسات عند مدخل الجامع وفكّر بخلع جزمتيه وتأدية الصلاة لكنه سرعان ما غيّر رأيه وقفل عائداً إلى القصر.

في غرفته، لاذ ابن المقفّع بدواته. تأمّل بطن عنّابة النائمة أمامه على السرير. لم يبقَ من حساب الأيام سوى دورة واحدة من دورات القمر ليخرج بعدها ابنه صغيراً فيكبر في زمان غير زمانه. يفكّر بأي عصر سيعيش ولده يا تُرى، وأيّ مستقبل سيكون له في أمة عابرة للحسرات وخالية من المجد. أتراه سينشأ في ظلّ دولة عادلة مزدهرة تفرض قوانينها وشرائعها على جميع الطوائف والملل؟ هل تراه سيكبر في كنف بني أمية كأبيه أم في ظلّ حكم الثوّار؟ وماذا لو انتصر الثوار وحكموا هذه البلاد، ماذا سيقول الولد عن أبيه؟ رجل علم ونور دافع عن دولة ظلامية؟ من سيقول له وقتذاك إن أباه كان في النور لكنه ظلّ عاجزاً عن الرؤية لأن ما ينظر إليه كان قائماً في الظلام.

حين طلع الصباح دعاه الوالي إلى ردهته وأخبره بأنه وَفى بوعده له وأخبر سليمة برغبة هشام في الاقتران بها، بيْد أنها لم ترضَ بغير ابن أبـي عبيد زوجاً لها. زفر ابن المقفّع في وجوم لكنه حرص على شكر الأمير باحترام.

دخل الديوان في هدوء. وجد هشاماً منكباً على ورقة يسوّد فيها قصيدة غرامية. تنهّد ابن المقفّع عميقاً واختار طرّاحة بجوار الصبـي. تحسّس أنفه، وتنحنح قائلاً:

- علينا أن نتقبّل الحب بحلوه ومرّه مثلما نتقبّل الحديقة بورودها وأشواكها. فيكون انتماؤنا للحب، لا للحبيبة. ففي آخر الأمر، الحبيبة، أي حبيبة، مجرد نجمة تضيء وتنطفئ، أما الحب فهو الخالد لأنه السماء.

ولم يكن ابن المقفّع يعرف إن كانَ بتلك الكلمات يهوّن على نفسه فقدان نجمة أم يهوّن على هشام خسارته سليمة.

رفع هشام رأسه عن الورقة. تسلق صدر ابن المقفع حتى وصل إلى عينيه. سأله بصوت خافت:

- لمْ ترضَ.. أليس كذلك؟!

لم يحر ابن المقفع جواباً. ثم هزّ رأسه أن لا..

وضع هشام الريشة من يده وغادر الديوان مطأطئ الرأس، مكسور الخاطر.

في تلك الليلة جافى ابن المقفّع النوم، فلم يستطع أن يغمض عينيه. ولئن قدّر أن هشاماً مفجوع برفض سليمة له وأنه بحاجة إلى عطف ومسايرة فقد مشى ببطء في الرواق إلى غرفته لمواساته. ما إن أصبح قريباً من فراشه حتى وجده غافياً. رأسه منطرح إلى الوراء. ناداه فلم يجب. هزّه من

كتفه فلم يأتِ حراكاً. عيناه مغلقتان كأنه نائم قرير العين. لكنه ميّت وبجانبه قارورة سم صغيرة. بكى ابن المقفّع مريده. مد يداً مرتعدة وأغلق فمه الفاغر. ثم أخفى القارورة داخل ثوبه لكي تبدو ميتة طبيعية فلا يلحق العار به وبعائلته.

في الصباح، التحق ابن المقفّع بعائلة هشام الذين قرأوا عليه الشهادة وكفّنوه. ثم حملوا النعش على أكتافهم وخرجوا إلى المقابر. حين أوصلوه إلى مثواه الأخير هبط أخوا الفقيد إلى حفرة غائرة واستقبلا الجثمان بأيديهما وبرفق وسّداه الأرض قبل أن يهيل المشيعون على الجسد التراب. تأمّل ابن المقفّع المشهد بعينين دامعتين. تساءل في سرّه: "هل خانتْ سليمةٌ هشاماً أم أن العاشق تخونه دائماً عيناه؟".

♦ ♦ ♦

XII

ينقل الرواة أن الخليفة الأموي مروان بن محمد قد أمر بقتل الإمام إبراهيم، صاحب الدعوة العباسية القابع في سجون دمشق. لكن ذلك لم يؤثّر على زخم الثورة والدعوة. إذ سرعان ما دعا أبو مسلم الخُراساني لأبـي العباس، شقيق الإمام الراحل، واستمر في تجهيز جيشه للاستيلاء على عرش بني أمية. في تلك الأيام، وصل كتاب عبد الحميد إلى أبـي مسلم مكتوباً على رقوق جلدية ومحمولاً لكبره على ظهر جمل. ولئن كان زعيم المتمردين على دراية ببلاغة عبد الحميد وقدرته الفذة على التأثير في قارئيه فقد أمر بحرق الكتاب قبل أن يطلع عليه أحد. ثم أخذ جذاذة منه وكتب عليها بيتاً من الشعر. لا يزال صدى كلماته يتردد في جنبات هذا الكون:

محا السيف أسطار البلاغة وانتحى
عليك ليوث الغاب من كل جانبِ

♦ ♦ ♦

يتأمّل عبد الحميد أشجار الحديقة ويحسّ برائحة الياسمين تعبق بالمكان. الليل زاهي النجوم والقمر الفضي مستدير ووضّاء، بيْد أن السكينة التي تحيط به وهو واقف الآن على شرفته في دمشق لا تمنع أكثر الأفكار تشاؤماً من التسلّل إليه. أتراه خذل صديقَه الخليفة حين دفعه لكلمة سواء مع أعدائه؟ أترى قاضي القضاة كان محقّاً حين دعا الخليفة إلى قمع التمرّد في مهده قبل أن يشتدّ عود الثوّار ويقوى؟ أتراه باع أوهام السلام لنفسه، وقبض دراهم الخيبة والخذلان؟ تضيق الأرض به وتغيض في داخل نفسه أصوات الأمل. فجأةً تطل نجمة على الشرفة المقابلة. يتملّى شعرها المجدول في جدائل صغيرة. هي مضطربة بدورها، تشقيها بلا ريب فكرة الحرب التي لن تبقي ولن تذر. تتأمّل وجه الخليفة المحتقن كل ليلة. ترى عروقه النافرة وتحسّ باضطرابه وخوفه الداخلي. فتتسلّل إلى روحها أفكار مرعبة وتستحضر نبوءة راهب الرقة. يدخل عبد الحميد جناحه ببطء. جاريته مريمة تغط في نوم عميق، يتأملها صامتاً، ثم يسرج قنديلاً. يفكر بالرسائل التي منّى نفسه من ورائها إصلاح حال الرعية وإرشادها إلى منابع المعرفة. خطّ عشرين منها حتى الآن لكن الوقت الآخذ في التضاؤل كالمؤن أيام الحصار لن يسعفه لاستكمالها. يغمس الريشة في الدواة. يفكّر أن الساعات القليلة المتبقية له قبل التوجّه إلى ساحات الوغى لن تكفي لوضع ما تبقى من رسائل النور، لكنها تكفي لتحبير آخر الرسائل لآخر الأصدقاء.

♦ ♦ ♦

XIII

يتناقل الناسُ أخبار الصراع الدائر في خُراسان. يسمعهم ابن المقفّع وهو يقوم بجولته اليومية في الأسواق، يخوضون في أحاديث الحرب ويسرفون في تعاطيها. يتحدّثون بنهم عن الثورة. يقول أحدهم إن الثوّار أقوياء ويرد آخر: **)أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ(** [الفيل: 1].

في طريق عودته إلى القصر، يعترض طريقه فارسٌ يعتلي جواداً شديد السواد. يصيح: "السلام عليكم. هل أنت ابن المقفّع؟" يجيب: "عليكم السلام ورحمة الله. نعم، أنا عبد الله بن المقفّع". يتفرّس فيه الفارس بعينين نافذتين، ثم يخرج رسالة ملفوفة من داخل ثوبه ويسلّمه إياها. ما إن يمسكها أبو عمرو حتى يُرخي الفارس العنانَ لجواده وينطلق كالسهم في الصحراء. يفضّ عبد الله الرسالة ويكتشف بأنها من صديقه عبد الحميد.

"إلى الصديق العزيز عبد الله أدامه الله في صحة وعافية وسرور.

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه.

أما بعد،

هذه آخر الرسائل التي أسوّدها لك قبل أن أمتطي صهوة جوادي وأسير وراء الخليفة مروان بن محمد لمواجهة المتمردين في خراسان. يقولون هنا في دمشق إن سبب تمدّد الثوّار واشتداد بؤسهم التواكل والتقاعس. جلّهم ينحون باللائمة عليّ لأنني نصحت الخليفة بالجنوح للسلم. أجيبهم أن الحرب تتطلب قلباً من الحجر، وحسبي أن قلبي لم يكن يوماً حجراً.

راسلتُ ثوار بني العباس وإذ بهم يقولون إن بعض الأمويين لم يرعوا لنا عهداً، ولم يفوا بوعد الرسول إلينا، حيث حدّث أن الناس سواسية كأسنان المشط وأن لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى. وحدّثت الأمويين فقالوا إن الثوار لا يبتغون غير الثأر، فهل تُبنى الأمم بالثارات؟

إن فرصة بقائي حيّاً بعد هذه الحرب ضئيلة. فالثوار يريدون رأسي والأمويون يبتغون التشفي مني بيْد أنني لست خائفاً من شيء على الإطلاق. فالحياة في آخر الأمر سراب وقبض ريح. سأقاتل حتى النهاية من دون أسف على شيء سوى فراقك يا أبا عمرو. ففي قلبي غصّة على ذهاب صداقتنا بذهابي وانقطاعها قسراً من أحد طرفيها، ولقد خلت أن طرفي الأرض ينزويان وطرفا صداقتنا لا ينزويان.

وللحق، دخل الخليفة ردهتي منذ أيام. قال لي بأنه احتاج أن أصير مع عدوّه وأظهر الغدر به، فإن أعجابهم بأدبي وحاجتهم إلى كتابتي قد تحوجهم إلى حسن الظن بي، فإن استطعتُ أن أنفعه في حياته، وإلا فلن أعجز عن حفظ حرمه بعد وفاته. فقلتُ له إن الذي أشرتَ به عليّ أنفع الأمرين لك وأقبحهما بي، وما عندي إلا الصبر حتى يفتح الله تعالى أو أُقتل معك. لقد شاركتُ الخليفةَ الحياة يا صديقي ومن العار أن لا أشاركه الممات!

دُمْ بخير،
صديقك عبد الحميد

♦ ♦ ♦

XIV

يغادر ابن المقفّع غرفته، يجول في ردهة القصر، يحسّ بأنه وحيد بشكل لا شفاء منه بعد رحيل هشام. يخرج إلى الطرقات، يهيم على غير هدى من شارع إلى شارع ومن سوق إلى سوق. بائساً يمضي، حزيناً أعمق الحزن. خطواته ثقيلة غير متزنة والدموع تنثال من عينيه. يجلس في ظلّ نخلة قصيرة تقيه حرارة الشمس. يطلب الهواء، يستعصي، يغمض عينيه. تغزوه صور بعيدة عن عبد الحميد. يمشي بمحاذاته في الحديقة في دمشق. يحدّثه بأمل عن رسائل النور التي يعمل على وضعها. يقول له إنه يخشى الزمان لأن الدهرَ أكثرُ تقلباً من جلد حرباء. يظنه مبالغاً. ثم يراه تائهاً في وعثاء الصحاري، ضائعاً في شعاب الجبال، وحيداً يمضي بلا مأوى وتحت قمر نحاسي حزين. يفتح عينيه، يغمضهما ثانية، تأتيه نجمة من زمان صار بعيداً. يستحضر ملمس يدها، يتحسّس آية الكرسي المعلّقة في صدره. يتأمّلها ويقلّبها بين يديه. قلادة دقيقة لا يزيد طولها على طول تمرة لكنها تختزن زمناً لا يُستعاد. أتراها ما زالتْ تحبه وتحنّ إليه مثلما يحنّ إليها، وهو إن ناداها الآن بأعلى صوته، تسمعه؟ أم أن في الزمان النسيان؟

♦ ♦ ♦

XV

وكأنه لا ينقص ابن المقفّع همّ جديد أو كأن الهموم يأتنس بعضها ببعض فلا تزور المرء فرادى. ففي صباح يوم الخميس، ماتت عنّابة. ماتت وهي تضع مولوده. الطفل أيضاً ولد ميّتاً. تقول المولّدة إنه مات في رحمها وسمّم جسدها.

وها هو ابن المقفّع يسير مع المشيّعين إلى المقابر، يودّع امرأته بحرقةٍ وينتحب كالنساء. لا بدّ تشقيه فكرة أنه لم يستطع أن يحبها مثلما أحبته. حين أودع جسدها الحفرة الغائرة، تمنّى لو يستطيع أن يتمدّد بجوارها. فيطوي جسدَه الترابُ ويرتاح من هموم الحياة التي تذلّ المرء وتقهره.

في المساء، زار الأميرُ يزيدُ ابنَ المقفّع في مقصورته. تصافح الرجلان طويلاً وتبادلا الدعاء بطول العمر قبل أن يجلس الأمير على الأريكة الوحيدة في الغرفة. صب ابن المقفّع لضيفه جرعة من شراب الرمان وجلس على حافة السرير المقابل له. صرف الأمير رجال حاشيته الواقفين داخل الغرفة واعتدل في جلسته ليقول كلاماً قدّر ابن المقفّع بأنه مهم.

- هل تذكر أبا عبيد؟ التاجر الذي تعاركتَ مع رجاله يومَ وصولك إلى الكوفة؟
- بالطبع أذكره!

تنهّد الأمير عميقاً. شرب من كأسه:

- لقد أظهر غدراً والتحق بالمتمرّدين!

حدّق ابن المقفّع إلى وجه الأمير. تأمّله طويلاً. بدا أن الخبر أنحله حتى نفرت عظامه من جلده.

- فليرحل.. فهو كقلّته، متملّق وبغيض!

وفهم ابن المقفّع من أنفاس الأمير المكتومة ومن بعض التنهّدات التي أطلقها أن الأمرَ أخطرُ من ذلك بكثير:

- أخذ معه عائدات الضرائب المكلّف بجبايتها. نحن بأمس الحاجة لتلك الأموال من أجل صرفها على الجند الذين يتأهبّون الآن لخوض الحرب ومواجهة جيوش أبـي مسلم عند نهر الزاب.

أجفل الكاتب كأن عقرباً لسعته. نظر إلى الأمير نظرة إشفاق. حرّك شفتيه لكنه لم يقل شيئاً. أردف الأمير وقد نفد شراب الرمان في يده:

- على كل حال، سنغادر في الصباح على رأس جيش كبير لمواجهة أبـي مسلم. عسى أن يكتب الله لنا النصر!

صمت لبرهة ثم أضاف:

- عيّنتك سيد هذا القصر في غيابـي. الجميع سيكونون بإمرتك هنا. فأنا لم أعد أثق إلا بأمثالك ممن يقولون الكلمات الصادقة ويؤثرونها على الكلمات المتملّقة.

تأمّله ابن المقفّع في صمت. أراد أن يسأله: وهل يرضى عاقل بحكم على شفا حفرة؟ لكنه ظل صامتاً.

- والآن قلْ لي يا صديقي. هل من نصائح أخيرة؟

تنهّد ابن المقفّع عميقاً. رغم إدراكه لجسامة الأخطاء التي ارتكبها الحكم الأموي، لم يرَ سبباً لكي يضنّ بالنصيحة على رجل أكرمه:

- لن يُكتب لكم النصر وأنتم تقابلون الحرب محزونين، مكسوري الفؤاد. خبّئ لوعتك واخرج غداً على الناس قوياً حتى وإن كانت المعركة كبيرة وغير مقدور عليها.

زفر الأمير. فكّر أن كلام كاتبه لا يخلو من التشاؤم لكنه كلام صدق. وطوبى لمن لديه كاتب صادق في هذا الزمان!

♦ ♦ ♦

في صباح اليوم التالي، شُحذت السيوف وأُخرجت الحراب من مخابئها مصقولة متألّقة. وما هي إلا برهة حتى أطل الأمير على الجموع الغفيرة التي تقاطرت من كلّ حدبٍ وصوب لوداعه والهتاف باسمه. وقد شوهِد الأمير يزيد يتلفت مع كل هتاف بحياته نحو ابن المقفّع وكأنه يشهّده على تملّق الناس وتزلّفهم. وجّه الأمير تحية كافية لإسكات رعاياه وألقى كلمة حماسية من صياغة ابن المقفّع، يعد الناس فيها بالفتح والنصر المبين. ما إن أنهى كلامه حتى انطلق صوت رجل مسنٍّ داعياً للصلاة على رسول الله. فصلّى الحاضرون بحناجر قوية وإن بائسة. ثم تقدّم مؤذّن أمرد وهتف بصوت جهوري:

- اللهم ثبّت أقدام رجالنا وألقِ الخوف والفزع في قلوب المجرمين.
- آمين.
- اللهم انصر ولي أمرنا، يزيد بن هبيرة، ويسّر طريقه واكشف غمومه وسدّد رميه.
- آمين.

في تلك اللحظات، وصل الموكبُ الذي سيقلّ الأمير إلى أرض الوغى يتقدمه فرسانٌ فوق جياد مطهّمة ومجلّلة بسروج فولاذية. وقبل أن يمشي الأمير باتجاه موكبه تقدّم نحو ابن المقفّع. ناء بيده على كتفه وقال بلهجة محايدة:

- أملي كبير بك!

ابتسم ابن المقفّع بحذر وعلّق بصوتٍ خافت:

- سدّد الله خطاك ونصرك على أعدائك!

XVI

جاء في سير أعلام النبلاء:

"جهّز يزيد بن هبيرة جيشاً عظيماً. نزل بعضهم همدان وبعضهم بماه، فالتقاهم قحطبة مرسلاً من قبل أبـي مسلم بنواحي أصبهان في رجب سنة مئة وإحدى وثلاثين هجرية. وإذ انكسر جيش يزيد فقد نزل قحطبة نهاوند يحاصرها حتى تقهقر نصر بن سيار إلى الري حيث وافته المنية متأثراً بمرض عضال. فأرسل الخليفة مروان عشرة آلاف من القيسية إلى نهاوند لمواجهة قحطبة لكن الأخير تمكن من محاصرتهم لأربعة أشهر حتى أكلوا دوابهم من الجوع. ثم خرجوا بالأمان في شوال وقتل قحطبة وجوه أمراء نصر بن سيار وأولاده. ثم أقبل قحطبة يريد العراق فبرز له يزيد ونزل بقرب حلوان فكان في ثلاثة وخمسين ألف فارس وتقارب الجمعان. في نفس الوقت، زحف جيش أبو مسلم من مرو ونزل بنيسابور ودان له الإقليم جميعه. ثم بلغ يزيد أن جيش قحطبة توجّه نحو الموصل وقدّر أنهم يريدون الكوفة، فرحل راجعاً نحو الكوفة وكذلك فعل قحطبة. ثم اجتاز الأخير نهر الفرات في سبع مئة فارس وتتام إلى بن هبيرة نحو ذلك. اقتتلوا وطُعن قحطبة بن شبيب ثم وقع في الماء فهلك. ولم يدرِ به قومه ولكن انهزم أيضاً أصحاب بن هبيرة وغرق بعضهم وراحت أثقالهم. أخرج الثوار أميرهم قحطبة من الماء ودفنوه وأمّروا مكانه ولده الذي سار بهم إلى الكوفة. فدخلوها يوم عاشوراء وهرب متوليها زياد بن صالح إلى واسط حيث تجمع جيش يزيد بن هبيرة. سار بعدها جيش ابن قحطبة، نازلوا واسط وعملوا على أنفسهم خندقاً. فعبأ ابن هبيرة جيوشه والتقاهم فانكسر جمعه.

وفي ثالث يوم من ربيع الأول جاء أبو مسلم إلى الكوفة وخطب داعيا لأبـي العباس الذي بويع بالخلافة في دار مولاه الوليد بن سعد. فما كان من الخليفة مروان إلا أن سار في مئة ألف فارس حتى نزل الزاب دون الموصل قاصداً العراق. فتصدّى له عمُّ أبـي العباس عبد الله بن علي بن العباس وكانت الواقعة في كشاف في جمادي. فانكسر مروان وتقهقر وعدّى الفرات وقطع وراءه الجسر وقصد الشام ليتقوّى ويلتقي ثانيةً.

فجدّ في طلبه عبد الله بن علي حتى طرده عن دمشق ونازلها وأخذها بعد أيام وبذل السيف وقتل بها في ثلاث ساعات نحواً من خمسين ألفاً غالبهم من جند بني أمية.

وانقضت أيامهم وهرب مروان إلى مصر في عسكر قليل فجدّ عم الخليفة العتيد في طلبه إلى أن بيّتوه بقرية بوصير فقاتل حتى قُتِل في 6 آب سنة 750م وطيف برأسه في البلدان وهرب ابناه إلى بلاد النوبة".

♦ ♦ ♦

XVII

يقضي ابن المقفّع ليله موزّعاً بين جرح أصابه من فقدان أحبّة وبين قلق متوجّس على مصير صديق. يتفكّر ليل نهار بعبد الحميد. أتراه تمكّن من الفرار والعساكر يقتفون أثره في الصحاري؟ هل يمر بخاطره وهو مطارد في شعاب الجبال؟ هل يتوقّع منه مساعفة ما؟ هل يتشبّث بقشة الغريق وعود الأمل؟ من يخفّف عنه وحشة الهزيمة ولوعة الانكسار؟

وإذ أرهق ابنَ المقفع التفكيرُ في تلك الليلة فقد غشيه النعاس. فنام ولم يستيقظ إلا مع انبلاج النهار على صوت دقّ قوي. قبل أن ينهض من فراشه لفتح الباب، كان الرجل الطويل ذو الكتفين العريضتين قد خلعه بضربة قوية من رِجله.

اعتدل ابن المقفّع فوق السرير ولم يصدر عنه سوى الذهول. حملق إلى عيني الرجل الملثّم والمنتصب أمامه. وإذ قدّر أن الرجل لم يقتحم غرفته بهذه الطريقة إلا لكي يجهز عليه، فقد عاهد نفسه بأن يحتفظ بكرامته في اللحظات الأخيرة.

قال الملثّم بصوت قوي:

- الجمع الهائج يحاصر القصر ويتهيأ لإضرام النار فيه.

أزاح ابن المقفّع حاشية الستارة ونظر من النافذة متظاهراً باللامبالاة. تأمّل مئات الوجوه الهائجة وسمع هتافاتهم المنادية بموت الأمير وأعوانه. بدا جلياً أن الوجوه التي كانت تهتف بحياة الأمير في الأمس القريب هي نفسها التي تهتف بموته الآن.

تساءل بنبرة هادئة:

- هل وقع المقدّر وانتهى كل شيء؟
- نعم.. لقد وفت دولة الأمويين واندحرت جيوشها..
- والأمير يزيد؟
- انكسر جمعه وقُتل أعوانه جميعاً ولم يبقَ منهم سواك!

بنظرة هازئة وبلهجة متهكّمة:

- وأنت أيها الثائر البطل جئتَ لتجهز عليّ قبل أن يسبقك إلى هذا المجد أحد سواك؟!
- بل جئتُ من أجل شيء آخر.

حدجه أبو عمرو بنظرة مستفسرة:

- جئت لإنقاذك!!

حملق ابن المقفّع إلى عينيّ الرجل. لا يدري إن كان بوسعه تصديقه أم لا. في تلك اللحظة أماط المقتحمُ اللثامَ عن وجهه. عرفه ابن المقفّع في الحال وصاح في ذهول:

- رستم!!

ثم أضاف وهو يشير إليه بأصبعه:

- جئتَ لتثأر لنفسك إذاً، لا للجموع الهائجة في الخارج؟
- لو أردتُ قتلك، يا أبا عمرو، لما حاورتك على هذا النحو.
- ماذا تريد إذاً؟
- لطالما تتبعتُ أخبارك وعرفتُ بأنك تحنو على الغرباء ولا تنقطع عن محبة الناس ومساعفتهم. فكنتَ بذلك نقيض أبـي عبيد الذي سرق بيت المال وفرّ من دون أن يخطرني بالأمر،

بل تركني وحيداً في الكوفة أواجه ضحاياه، ولو لم أتوارَ طيلة الفترة الماضية لمزّقني الناس إرباً إرباً.
حكّ ابن المقفّع رأسه، إذ لزمه بعض لحظات لأدراك ما يقوله الرجل.
- وهل تظن أن بوسعي أن أحميك من أهل الكوفة بعدما سقطت الراية الأموية؟!
قهقه رستم ملء شدقيه:
- أهل الكوفة يخشونني اليوم أكثر من أي وقت مضى. هم يظنون بأنني أمثّل إرادة العباسيين الآن وأن أبا عبيد، أول الملتحقين بهم، هو مَن أرسلني لكي اقتحم هذا القصر، آخر معاقل الأمويين.
- ثقْ بـي. لا أحد يستطيع إخراجك حيّاً من هذا المكان سواي!
- ولماذا أثق بك؟!
- لأنك لا تملك خياراً آخر. كما أنك لا تملك وقتاً كبيراً للتفكير.
- وكيف ستبرّر ذلك لأبـي عبيد؟
- لن أبرّر له شيئاً، فقد قرّ قراري. وستتبع خطاي خطاك!
تفرّس ابن المقفّع في وجه محاوره:
- لا أملك مالاً أغدقه عليك.
- لكنك تملك القدرة على تعليمي فكّ طلاسم الكتب.
تفكّر أبو عمرو:
"إن كان للمتجمهرين في الخارج وجهان، فلم لا يكون لرستم وجهٌ آخر أيضاً؟".
وإذ نهض لحزم أمتعته فقد نهره رستم بحزم:
- الناس مشدودون كالوتر في الخارج. أقل صرّة قد تهيّجهم.
- لن أغادر من دون مخطوط كليلة ودمنة..
- لا بأس. خذه معك. لا يستفز الناسَ ما لا يعرفون قيمته.
وما إن أخفى ابن المقفّع مخطوطه داخل ثوبه حتى أتى رستم بحبل.
- دعني أربط يديك!
نظر ابن المقفع إلى رستم بارتياب. تردّد في مد يديه. ظن أن في الأمر أحبولة:
- قلت لك: لا تخشَ شيئاً!
ما كادا يخطوان بضع خطوات خارج القصر حتى اعترض طريقهما زمرة من الغاضبين على رأسهم المؤذّن الأمرد. قال لرستم وهو يشير إلى ابن المقفّع **"هذا أموي حقير. لن ندعه يخرج حيّاً من هنا!".**
ومن دون أن ينظر إلى مرافقه، توجّه رستم نحو الغاضبين بنبرة حازمة وإن خالية من الاستفزاز:
"إنه أسيري. لديّ تعليمات صارمة بإحضاره بنفسي للخليفة العتيد!".
وإذ قدّروا أن رستم لن يساعد غريمه، ابن المقفع، على الهرب، فقد تباعدوا فاسحين لهما الطريق.

♦ ♦ ♦

XVIII

إسطنبول 3/2/2015

العزيز البروفسور شكير،

اطّلعتُ على الرسائل المترجمة لإخوان الصفاء في مكتبة الجامعة. ووجدت فيها لمعات عقل وحكماً نادرة جديرة بالبحث والدراسة. إنها بالفعل ومضة فكرية متجدّدة، مستوعبة للذات وللآخر خير استيعاب، ومنفتحة على جميع المعطيات القديمة منها والحديثة. ولا ريب أن واضعي تلك الرسائل هم أصحاب مبادرة جريئة ودؤوبة وقد تكتّموا على أسمائهم إما حرصاً على حياتهم المهدّدة وإما زهداً في شهرة زائلة.

وأودّ هنا إبداء ملحوظتين. أولاً عبارة "إخوان الصفاء" وردت لأول مرة في كتاب كليلة ودمنة، باب الحمامة المطوّقة، لابن المقفّع. "إذ يقول الملك لبيدبا: حدّثني، إن رأيت، عن إخوان الصفاء. كيف يبتدئ تواصلهم ويستمتع بعضهم ببعض؟ ويجيب الفيلسوف: إن العاقل لا يعدل بالإخوان شيئاً، فالإخوان هم الأعوان على الخير كله، والمؤاسون عند ما ينوب من المكروه". فهل يمكن أن تحمل تلك المصادفة دلالات معيّنة؟ ثانياً، إن المقطع الأخير من الرسالة الأولى يشير بوضوح إلى أن عدد الرسائل هو اثنتان وخمسون رسالة. بيد أنني أشك في أن تكون الرسالة الأخيرة والتي أطلق عليها اسم "الرسالة الجامعة" جزءاً من الرسائل الأصلية وذلك بسبب الاختلاف الواضح في أسلوب وضعها. ما قد يفيد أن هناك رسالة مفقودة تم استبدالها بالرسالة الجامعة.

مع فائق الاحترام

محمد

عزيزي محمد

تحية طيبة،

قد تشكّل هاتان الملاحظتان مدخلاً للبحث الذي تعمل عليه. فيما عنى ذكر اسم إخوان الصفاء في كتاب ابن المقفّع، فلا فكرة لديّ. فأنا لا أقرأ العربية ولم أطّلع على الكتاب المذكور. أما بالنسبة إلى موضوع الرسالة المفقودة، فتلك ملاحظة مهمّة وأرى أن تغوص فيها أكثر. إن كنتَ تقرأ باللغة العربية، أقترح أن تذهب إلى مكتبة محمد الفاتح في إسطنبول وتطّلع على النسخة الأصلية لرسائل الإخوان المكتوبة بريش دعاتها منذ مئات السنين.

د. مراد شكير

♦ ♦ ♦

العزيز الدكتور شكير،
نعم، أقرأ العربية بشكل جيّد. فأنا من عائلة عراقية تركمانية. وُلِدت في العراق وعشت فيه. ولم أغادره إلا مع بدء حرب عام 2003 التي مزّقت بلادي شرَّ تمزيق. وللحق، إن أكثر ما استرعى اهتمامي في تلك الرسائل نزعتها التوفيقية بين جميع الأديان والمذاهب. أليس هذا كل ما يحتاج إليه وطني الذي مزّقته الحروب الطائفية؟
من جهة أخرى، سرّني أن أعلم أن النسخة الأصلية للرسائل لم تزل محفوظة في مكتبة الفاتح. سأطّلع عليها في أقرب فرصة وأعود إليك بملاحظتي.
مع المحبة
محمد

♦ ♦ ♦

كتاب المدينة
التي تحرسها الأنهار

ابذل لصديقك دمك ومالك.
(ابن المقفّع)

I

يتحرّك ابن المقفّع ببطء بين الناس. يهيم على غير هدى من دون مكان يقصده. يرى في الدروب صِبية يمثّلون الحرب بين الأمويين والعباسيين، يمتطون جياداً وهمية ويحملون فروع الشجر سيوفاً ورماحاً. لا أحد منهم يريد أن يكون الخليفة المهزوم، ولكنه يريد أن يكون أبا مسلم أو الخليفة العتيد أبا العباس. يمضي ابن المقفّع بائساً من شارع إلى شارع. يسلك تحت مطر واهن زقاقاً يفضي به إلى حانة دأب على ارتيادها منذ أن حطّ رحاله في البصرة. وها هو يدفع باباً مواراباً ويهبط بضع درجات ليستقر في حجرة مصابيحها خافتة وجدرانها باهتة. يملأ الساقي كأسه حتى الجمام. يحتسيه بعينين مغمضتين وبقلب مغلق في وجه الفرح. وماذا يمكن لطريد متسكّع أن يفعل أكثر من ذلك؟ أليس محكوماً عليه بالموت من العباسيين الذين يجدّون في مطاردة كل من عمل في قصور الأمويين؟ أليس ضائعاً في متاهة الخير والشر ودوّامة الحرب والسلم؟ ألا يقف على شفير هاوية في قاعها عقارب الشوق وأفاعي الذاكرة؟

وما هي إلا لحظات حتى دخل الحانة رجل ضرير يخطو في الثلاثين، طويل الوجه، مجدّر، ذو عينين جاحظتين يغشاهما لحم أحمر. أجلسه لولو، الغلام المرافق، بجانب ابن المقفّع الذي ما إن رآه حتى تلفّظ بعبارات ترحيبيّة حارة. فابتسم الشاعر الضرير الذي لم يكن إلا بشار بن برد. تبادل الرجلان كعادتهما عدداً لا يُحصى من النُكات والمُلَح. فنسي ابن المقفع لبرهة سقام نفسه وضحك ملء قلبه حتى دمعت عيناه. ثم جلست فاتنة في صدر الحانة، ترتدي ثوباً حريرياً طويلاً وتستر جبينها وذقنها بملاءة شفافة بيضاء. تملّى ابن المقفع وجهها وذكّرته عيناها المكحلتان بنجمة. وما هي إلا دقائق ثلاث حتى شرعت تغني بصوت عذبٍ قصيدةً شائعة لنديمه بشار. ما لبث أن تمايلت على أبياتها جذوع السكارى وهم يعبّون كأساً بعد كأس.

وذَات دَلٍّ كأنَّ البدر صورتُها
باتت تغنّيني عميدَ القلب سكرانا
إنَّ العيونَ التي في طَرْفِها حَوَرٌ
قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
فقُلْتُ أحسنْتِ يا سؤْلي ويا أَمَلي
فأَسمعيني جزاكِ اللّه إحسانا
يا حبذا جبلُ الرَّيَّان من جبل
وحبذا ساكن الريان مَنْ كانا
يا قوم أذْنِي لِبَعْضِ الحيّ عاشقةٌ
والأُذْنُ تَعْشَقُ قبل العَين أَحْيانا
لا يقْتُلُ اللَّهُ من دامَتْ مَودَّتُه
واللَّهُ يقتل أهلَ الغدر أَحيانا

فجأة اعتدل ابن المقفّع وأصلح لاإرادياً عمامته بينما عيناه تتابعان رجلاً أنيقاً مسرفاً في العناية بمظهره. انحنى وهمس في أذن نديمه الضرير: "صديقنا عبد الملك هنا وها هو يتجه نحونا!".

- هلّ أهلاً ووطأ سهلاً، شاعر السلاطين والطغاة!

قال بشار بنبرة ممازحة ما إن دنا الشاعر منهما. بدا عبد الملك غاضباً، غائم الوجه. إذ ساءه بلا ريب أن يرى ابن المقفّع، حكيم زمانه، منادماً لمعشر السوء. تحسّس ثوبه الأسود المدعوك وتوجّه لبشار بكلمات قاسية. ضحك بشار. أجابه وهو يمسح النبيذ الذي سال على فمه:

إذا كنتَ في كل الأمور معاتباً
صديقك لم تلقَ الذي لا تعاتبه
فعش واحداً أو صل أخاك فإنه
مقارف ذنب مرة ومجانبه

وتمتم عبد الملك بنبرة بين الجدّ والمُزاح:

- أنت دائماً مقارف الذنب يا أبا معاذ!

فتدخّل ابن المقفّع مدافعاً:

ولا تلم المرء في شأنه
فربّ ملوم ولم يذنبِ

تنهّد عبد الملك وناء بيده على كتف ابن المقفّع. أضاف بعد صمت:

- أنت سلطان الفِكر وأشد الناس سغباً للمعرفة. مهما عظمتْ مشاكلكَ ليس هناك ما يبرّر إسرافك في الشرب.
- خسارة الأصدقاء تقسم الظهر يا عبد الملك!

هزّ بشار رأسه. تناول كأسه بيدٍ كليلةٍ وارتشف منها جرعة طويلة. أما عبد الملك فلم يحر ما يقوله. يعرف أنه يقصد صديقهما عبد الحميد الذي قيل إنه قُتل في معركة دمشق الكبرى. فقبّل كتف صاحبه بقبلة مواسية. أضاف بعدها ابن المقفّع بصوت متحشرج:

- عبد الحميد كان يلوب بحثاً عن السلام. لم يأثم ولم يرتكب ذنباً، ومع ذلك قتلوه. أي أمة تلك التي تُقام على جثث مفكريها!؟

تطلّع عبد الملك من حوله. كانت المغنية قد أنهت وصلتها، وسكن الناس سكوناً غريباً. خشي أن يسمع حوارهما مخبر من مخبري الخليفة العتيد. فضمّ صديقه إلى صدره محاولاً إسكاته بلطف لكن ابن المقفّع لم يسكت. بل هتف بصوت ملؤه الحسرة:

- سيكون هناك كثير من الدماء. الكثير الكثير من الدماء.

ولم يضف عبد الملك شيئاً. دفع الحساب ورجا صاحبيه أن يغادرا في الحال، فقد خامره شعور أن بقاءهم في الحانة سيزجّهم جميعاً في مشاكل كثيرة ويجلب عليهم الويلات.

حين رجع ابن المقفّع إلى بيته، فتح كاغداً وكتب الكلمات التالية:

"اذا رأيت أمراً استقام بغير رأي، وأعواناً جزوا بغير نيل، وعملاً أنجح بغير حزم، فلا يغرنك ذلك. فإن الأمر الجديد تكون له مهابة في النفوس. ثم تصير الشؤون إلى حقائقها وأصولها. فما كان من الأمر بني على غير أركان وثيقة ولا عماد محكم أوشك أن يتداعى ويتصدّع..".

♦ ♦ ♦

II

لا تَسْبِقِي بِي حِمَامَ الْمَوْتِ وَانْتَظِرِي
يوماً كأنْ قد طوتني البيضُ والسودُ
قَدْ لاَمَني فِيكِ أَقْوَامٌ فَقُلْتُ لَهُمْ
مَا ذَنْبُ مَنْ قَلْبُهُ حَرَّانُ مَجْهُودُ؟

- طاب فوك يا بشّار!

هتف عبد الملك وهو يجمع حاشية ثوبه ويركع على ركبتيه إلى جانب ابن المقفّع الذي كان ينكت الأرض بعود ويهز رأسه مستمتعاً بقصيدة بشار.

- مررتُ عليك في البيت. سألت رستم عنك، قال لي إنك قصدت المِربَد[3]. ثمة أمر أرغب في مناقشته معك.

توقّف ابن المقفّع عن نكت الأرض ورفع طرفه متسلقاً جسد عبد الملك حتى وصل إلى عينيه. وجدهما سوداوين هادئتين. أردف عبد الملك:

- أبو جعفر!

كان يكفي أن تُذكر تلك الكنية حتى يُعرف أن المعنيّ هو أبو جعفر المنصور، الأخ الأكبر للخليفة العباسي، والذي كان من المقدّر أن يُبايع خليفة للمسلمين بعد مقتل أخيه إبراهيم الإمام لو كان ابن حرّة. ويبدو أن عبد الملك أراد بذكر أبـي جعفر استشفاف مشاعر صاحبه نحو الرجل الثاني في الخلافة الجديدة قبل أن يشرع باقتراح ما يجول في خاطره.

- .. ما به؟!

- سيأتي إلى البصرة مطلع الأسبوع القادم. وقد قيل إن قصره سيُفتح للعامة والشعراء.

ثم تنهّد عبد الملك:

- إنها فرصتك يا أبا عمرو لكي تتحامل على نفسك، وتنفض يديك أمام الملأ من الأمويين، وتُظهر للحكّام الجدد عظمة فكرك وسعة اطلاعك!

غام وجه ابن المقفّع. وضع العود من يده متفرّساً في وجه محاوره. ثم قال:

- اعفني من هذا الأمر يا عبد الملك. أنا في الأصل لم أكن يوماً أمويّاً بل كنتُ متعاطفاً مع الثوّار، متوسِّماً فيهم خيراً. لكنني اليوم أرفض أن أصافح قتلة عبد الحميد ولن أسامحهم بل سأناصبهم العداء ما حييت.

- كانت حرباً قاسية يا أبا عمرو. وفي الحرب لا يملك المقاتلون أن يميّزوا بين صالح وطالح، فيضعون جميع الذين يقفون في الجهة المقابلة في كفّة واحدة. ثم ماذا لو فكّر كل امرئ في الانتقام لأحبته؟ أي مستقبل سيكون لهذه الأمة وكيف ستستقيم أمورها؟ ألم يكن عبد الحميد نفسه داعية مغفرة؟!

ورسم ابن المقفّع على شفتيه ابتسامة هازئة:

- لطالما كان داعية مغفرة. وهذا ربما ما يحزّ في النفس!

في تلك اللحظات، كان بشّار قد نزل عن منبره ومشى برفقة غلامه نحوهما.

- ما بك يا أبا عمرو؟ أأزعجك كعادته شاعر البلاط؟!

- تصوّر! يقترح أن أقف مع جوقة الشعراء والراقصات مستقبلاً أبا جعفر وحاشيته من قتلة عبد الحميد.

رفع بشار عينيه الجاحظتين صوب السماء الزرقاء. قال كمن يكلم نفسه:

- وما الضير في ذلك يا أبا عمرو؟!

قطّب ابن المقفّع بين حاجبيه وأبدى عبد الملك دهشة ما لبثت أن بدّدتها كلمات بشار:

- أنشد له:

خليفة يزني بعمامته
يلعب بالدبوق والصولجان!

أسكته عبد الملك بوجه محتقن. ثم قال:

- دعك منه يا أبا عمرو. إن أخصامك كثر، ومن المؤكد أنهم يترصدونك وسوف يستفيدون من غيابك لكي يحرّضوا أبا جعفر عليك ويحثوه للتخلص منك أسوة بسائر كتّاب الحكم الغابر.

- أنا ذاهب إلى الحانة. الحق بـي، يا أبا عمرو!

تمتم بشار وهو يشد على راحة غلامه لكي يقوده إلى كؤوس لذته.

- أنا لا أطلب منك أن تمتدح أبا جعفر أو أن تتملّق لحكم بني العباس. كل ما أرجوه منك أن تحضر مجلسه تمويهاً وذرّاً للرماد في العيون. فتقطع بذلك الطريق على أخصامك الذين يريدون الإساءة إليك غيرةً وحسداً.

أطرق ابن المقفّع. فكّر أن راتبه السخي قد انقطع بسقوط دولة الأمويين والنقود التي جناها من بيع ضيعته ستنفد بعد وقت قصير ليجد نفسه مضطراً في جميع الأحوال لمقابلة الأمراء والولاة عارضاً خدماته عليهم.

فأعلن استسلامه بكلمات قليلة أخفاها خلف واجهة صفيقة من الكبرياء:

- أحضرُ ولا أنبس بكلمة.

- لا ضير في ذلك. وعذرك أنك لست بشاعر!

♦ ♦ ♦

III

كان الطقس لطيفاً تسري في نسماته رائحة الزهر والعشب حين طرق عبد الملك باب ابن المقفّع. فتح رستم الباب وتربّعوا جميعاً فوق الطرّاحات يرشفون الشاي من كؤوس صغيرة. ما إن أنهى عبد الملك شرب كأسه حتى ربّت على ساق مضيفه قائلاً: "أين مخطوطك؟".

- أي مخطوط؟
- ذاك الذي تقصّ فيه حكايات على ألسنة الطير والبهائم.

أشار ابن المقفّع لرستم أن يأتي به. فأسرع الأخير يحضره من صندوق خشبي مستطيل عليه نقش نباتات وعصافير.

- هاك.. الكتاب!

أمسكه عبد الملك بكلتا يديه وراح يقلّب صفحاته باهتمام.

- هلمّ نغلّفه قبل انقضاء النهار.
- ولِمَ نغلّفه!؟

رسم عبد الملك ابتسامة ماكرة على شفتيه:

- قد تحتاج إلى تقديمه لأبي جعفر.
- أقدّمه لأبي جعفر! ألم نتفق أن...

قاطعه عبد الملك:

- لم أقلْ ستقدمه.. بل قلتُ قد تحتاج إلى ذلك.

في حانوت الورّاق، رتّب صبيٌ الأوراق بعناية وقصّ الجلد اللازم للتغليف. غمس الريشة في الدواة وسأل عبد الملك عن اسم المخطوط. فتطلّع صوب أبي عمرو الذي تمتم بصوت مسموع: "كليلة ودمنة". حين انحنى الصبي فوق الغلاف لرسم العنوان، تذكّر ابن المقفّع هشاماً وانثالت دمعة على خدّه، لم يستطع عبد الملك أن يدرك كنهها.

حين رجع أبو عمرو إلى بيته، سمع في الخارج صوتاً ينادي أن أخا الخليفة، أبا جعفر المنصور، أطال الله بقاءه سيأتي إلى المدينة في الغد داعياً الأهالي لاستقباله أحسن استقبال. ظلّ المنادي يجول في الطرقات منادياً حتى نزل الظلام.

أوى ابن المقفّع إلى فراشه وظل مؤرّقاً حتى ساعة متأخرة من الليل. يتمنى لو يصيبه مرض يتعلّل به كي لا يشارك في مراسم الاستقبال. قلبه يقول له أن يذهب وعقله يقول لا. يغمض عينيه فيرى عبد الحميد واضحاً كاملاً كأنه يقف أمامه. يسأله إن كان سيغفر له استقباله لقاتليه فلا يجيب. يكتفي برسم ابتسامة غامضة على شفتيه.

في الصباح الباكر، راح الناس يتوافدون على الطرقات المفضية إلى القصر. بعضهم من أهل البصرة وبعضهم الآخر من القرى المجاورة. كلهم تابعوا بطولات العباسيين وبنوا آمالاً كبيرة على انتصاراتهم في إرساء العدل ورفع المظالم. ابن المقفّع وعبد الملك وجلّ شعراء مِرْبَد باستثناء بشار بن برد وقفوا في باحة القصر منتظرين قدوم الأمير، مؤملين أنفسهم أن يغدق الرجل في مكافأتهم. قطّع عبد الملك الوقت بترديد القصيدة التي ينوي تلاوتها أمام الأمير فيما راح ابن المقفّع يتأمّل حمامة بيضاء حطّت على نافذة القصر. بدا وكأنها أتت أيضاً لاستقبال الأمير ورؤيته رؤيا العين.

قبل انتصاف النهار، ظهر الأمير أبو جعفر معتلياً حصاناً أشهب مطعماً، عالي المتن. يحفّ به عدد لا يُحصى من الفرسان ذوي العباءات السوداء الفضفاضة التي تضفي عليهم مهابة ورهبة. كان طويل القامة، جسيماً. عيناه كبيرتان يعلوهما حاجبان ثقيلان وله لحيته مدببة خفيفة وعلى فمه ابتسامة غامضة.

شقّ الأمير طريقه وسط الحشود. دخل القصر منقّلاً عينيه في أرجائه، متأملاً فناءه الكبير المحاط بأعمدة تحمل عقودها سقفاً أبيض نائياً. وما هي إلا برهة حتى جلس الأمير فوق مقعد كبير فخم وراحت الوفود تمر من أمامه. بعضها يمثّل أحياء البصرة وبعضها الآخر يمثّل نقابات الأسواق وأهل الذمم من يهود وصابئة ونصارى. ثم أومأ أبو جعفر إلى حاجبه أن ينحني وهمس في أذنه أن يدعو الشعراء لإنشاد قصائدهم. فتقدّم شاعر عريض الوجه واسع العينين مادحاً بني العباس ومشبّهاً إياهم بالليوث والأسود. ما إن أنهى تلاوة أبياته حتى أشار الأمير إلى حاجبه أن يناوله كيساً مخملياً. هزّه في راحة يده ليرى الناس كم هو ثقيل ومليء بالقطع الذهبية. ثم رماه للشاعر الذي حاول التقاطه بكلتا يديه لكنه لم يستطع، فتعثّر ووقع أرضاً وسط قهقهات طويلة أطلقها الأمير وردّدها الحاضرون. وقد تكرّر هذا المشهد أكثر من خمس مرات قبل أن يشعر الأمير بالضيق والملل ويعلن بلسان حاجبه بأنه اكتفى بما سمعه من الشعر هذا اليوم.

فجأة وقف الأمير، وضرب كفاً بكف، فسكن الحشد سكوناً غريباً. تطلّع ابن المقفّع من حوله ورأى الحرس يسوقون خمس نساء مكبّلات، راسفات في الأغلال، تحجّرت وجوههن وترقرقت الدموع في محاجرهن فيما عيون الحشود تتطفل على انكسارهن وهن يمشين بخطى وئيدة، مطأطئات الرؤوس. وإذ راح بعض الحاضرين يضحكون، أُستفز ابن المقفّع والتفت نحو عبد الملك متسائلاً: "ما الذي يضحكهم؟!" وقبل أن يكمل عبارته الأخيرة، انتبه إلى رجل قصير وبطين يجلس فرحاً مستثاراً وسط حاشية الأمير. عرفه؛ إنه أبو عبيد، تاجر القيان. وما هي إلا برهة حتى صاح الحاجب:

"لقد نصرنا الله على أعدائه وأعدائنا ومكّن لنا في الأرض واستخلفنا، تعالى، على عباده. وها هي سهام حقدهم ترتد إلى صدورهم وتدور على الباغي الدوائر...".

تمتم أحدهم: **)سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ...(** [فصلت: 53]. وغمغم آخر: **)... وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ(** [الشعراء: 227]. وحين همس شاب في أذن رفيقه "إنهن نساء مروان بن محمد"، رفع ابن المقفّع رأسه وتملّى من بين النساء امرأة مائلة الجذع، مطرقة الرأس، يداها مقيّدتان. وقد بدت ساهمة، تحدّق إلى سجادة فارسية ملوّنة. "نجمة!" فكّر ابن المقفّع وتسارعت نبضات قلبه. وبحركة لا إرادية، شقّ طريقه وسط الناس وهتف بصوت قويٍّ: "لديّ ما أقدّمه للأمير!" امتعض الحاجب الذي اضطر إلى قطع كلمته. وتوقّف الأمير فجأة عن إتمام تثاؤبه رافعاً رأسه نحو مصدر الصوت. أما نجمة فقد اختلجت شفتاها وشهقت بشوق "عبد الله!".

- هاتِ ما لديك!

هتف الأمير في فضول. فتقدّم ابن المقفّع من الأمير وناوله مخطوط كليلة ودمنة.

- ليس شعراً بل كتاب حكمة أفرغت فيه الجد في قالب الهزل.

هزّ الأمير رأسه في اهتمام. قلّب صفحاته وتوّقف عند إحدى القصص. قال:
- طاب يراعك.
- إذا جعل الكلام مثلاً كان ذلك أوضح للمنطق، وأبين في المعنى، وآنق للسمع، وأوسع لشعوب الحديث...
وقبل أن يكمل ابن المقفّع عبارته، صاح أبو عبيد:
- فليحذر مولاي، إنه عبد الله بن المقفّع، كاتب يزيد بن هبيرة، الوالي السابق للعراق من قبل مروان بن محمد.
وقبل أن يتكدّر مزاج الأمير، أسرع ابن المقفّع يقول:
- هذا الكتاب وضعته في عهد الأمويين وقد ابتغى بيدبا فيه ردع الخليفة عن غيّه وحمل الشعب على الغضب ضد ظلمه.
- مولاي، هذا الرجل لم يكن يوماً عدواً للأمويين بل كان كاتبهم والمؤتمن على أسرارهم.
- الأمويّون ضربوا يديّ والدي حتى تقفّعتا. كيف لا أكنّ لهم العداء؟!
- قد تلاعب بأموال الخراج. وجنى على يديه جزاءً وِفاقاً.
- بل وقع فريسة غضب أولياء بني أمية وضربت يداه ظلماً وعدواناً.
جسّ الأمير شاربيه وتحسّس لحيته في حيرة. عندها تدخل كاتب الأمير، أبو أيوب المروياني. وهو رجل قصير، هزيل البنية. أنفه بارز ذو قصبة طويلة، ولحيته شبيهة بلحية الماعز.
- لم ألتقِ ابن المقفّع من قبل لكنني سمعت بأن له أبياتاً في الخمر:

سأشرب ما شربتُ على طعامي
ثلاثاً ثم أتركه صحيحا
فلستُ بقارفٍ منه آثاما
ولست براكبٍ منه قبيحا

- وهو زنديق كبير!
أضاف آخر. وإذ غام وجه الأمير فقد حبس الجميع أنفاسهم ولم يجرؤ أحد على إصدار أي صوت. تذكّر ابن المقفّع هدية نجمة. أدخل يده داخل ثوبه. تحسّس سلسلة تنتهي بقلادة تمثّل آية الكرسي. خلعها عن رقبته وقدّمها للأمير قائلاً: "هل يعلّق زنديق آية من آيات الرحمن؟!".
- أما بالنسبة للأبيات التي نسبها كاتبكم إلي فإنني أسمعها لأول مرة.
فتح الأمير المخطوط مجدداً. قرأ قصة أخرى قبل أن يتفوّه بحكمه:
- فليعطَ وزن مخطوطه ذهباً.
وازدهى ابن المقفّع غير أنه قال:
- عذر مولاي، المال لا حاجة لي فيه. أما الكسوة فلا اختار على لباسي هذا شيئاً ولكنني لست أخلّي سموك من حاجة.
- وما هي حاجتك؟
- أن تأمر بإخلاء سبيل نساء مروان.
امتقع وجه الأمير وقطّب قليلاً. في تلك اللحظة التقت عيناه عيني نجمة لأول مرة وسط همهمات الحضور المستنكرة. كانت برهة وجيزة لكنها دهر في عيني العاشقيْن.

- ألم تقلْ إنك عدو بني أمية؟!
- بلْ أنا كذلك. لكنني حين قصدت صديقي عبد الحميد في قصر مروان، دعاني الأخير إلى مأدبته. فأكلتُ من أطباق أعدّتها نساؤه. أيمكن لكريم أن يتنكّر لمن أطعمه من أطباقه؟

أطرق الأمير. تنفّس عميقاً حتى كاد يأخذ في صدره ما في القاعة من هواء. ثم زفر قراره:

- لقد أكرمتني بإهدائي كتابك وسأكرمك بإعادة زوجة مروان وابنتيه إلى دارهن.

وإذ ذهب فكر ابن المقفّع إلى نجمة فقد أسرع يقول:

- مولاي، الله رؤوف بالعباد وأنت معدن الحلم ومنبع الغفران والكرامة. إن زوجة مروان وابنتيْه اعتدن أن يُخدمن ولا يستطعن فعل أي شيء من دون خادمتيْهما.

تأمّل الأمير وجه أبـي عمرو. أمر بعد تردّد:

- فليطلق سراحهن جميعاً وليرافقهن الحرس حتى دمشق.

♦ ♦ ♦

في الليل، عندما استلقى ابن المقفّع على فراشه أشقاه الحنين. سرت في بدنه برودة وأصابته رجفة من لوعة العشق. تحسّس القلادة، هدية نجمة، ومدّ يده للمس وجهها المتخيّل. رقّت بدورها، نامت فوق صدره ومدّت يدها لتمسح دموعاً انثالت على خدّيه. في الهزع الأخير من الليل، نحّى صورتها وأغمض عينيه ونام. أتته في المنام، يمشيان معاً فوق كثبان الرمال، تهدهد رضيعه الذي ولد ميتاً في الكوفة وترضعه. فيبدو حيّاً وذا عينين لوزيتين كعينيها. في الصباح، تذكّر منامه ورأى فيه بشارة خير.

♦ ♦ ♦

IV

فتح ابن المقفّع حاشية الستارة ورأى من النافذة رستم ينزل دلواً في البئر. يرفعه ويسكب ما فيه من ماء على رأسه الحليق. أحس برغبة في التحدّث إليه عما حصل معه في القصر. فخرج إلى باحة الدار المتربة. جلس على حافة البئر وسأله بنبرة ودّية:

- هل يمكن أن يحدس القلب بأمر قبل وقوعه؟

حكّ رستم رأسه المبلل بالماء من الخلف وعلّق: **"أنت أعلم!"** ضحك ابن المقفّع وسأله قاصداً أن يغيّر مجرى الحديث:

- هل نسخت سورة البقرة؟

أجاب رستم بحماس متّقد:

- نسختها وحفظتها عن ظهر قلب.

أطرى ابن المقفّع عليه وأشاد بفطنته. وكان رستم قد أتمّ حفظ المعلقات وأغلب سور القرآن. كما صار يقرأ بسهولة ويكتب بخطٍّ واضح وسليم.

في المساء وبينما كان ابن المقفّع جالساً أمام منضدة خشبية، منصرفاً بكليته للكتابة على ضوء سراج واهن، سمع طرقاً على الباب. سافر فكره بسرعة إلى نجمة. قفز قلبه وتسارعت نبضاته. وإذ لم يسمع الطرق مجدّداً فقد ذهب به الظن بأنه يتوهّم. وقبل أن ينحني مجدداً فوق رقه معاوداً الكتابة، طُرق البابُ مجدّداً. لم يتمالك نفسه فخرج من غرفته بخطوات مسرعة. ولئن وجد الباب مفتوحاً جزئياً فقد قدّر أن رستم خرج لملاقاة الطارق. وما هي إلا برهة حتى رجع رستم ليجد معلمه متسمّراً في صدر الدار بلا حراك. سأله بارتياع:

- من الطارق؟!

ابتسم رستم وبانت أسنانه:

- لا شيء يدعو للقلق. مجرد عابر سبيل يبحث عن مأوى يمضي فيه ليلته!

- افتح له غرفة الضيوف وقدّم له شربة ماء وطعاماً.. وأعطه حراماً يتدثّر به. فقد يبرد الطقس في آخر الليل.

وإذ رآه ابن المقفّع يكتفي بوضع خمس حبات من التمر في طبق صغير فقد صاح به أن يأتي الضيف بالزيتون والجبن واللحم المقدّد. تأفّف رستم وشدّ على شفتيه في تذمّر. ابتسم ابن المقفّع، يعرفه بخيلاً وشديد التقتير. بعد دقائق خمس، رجع رستم:

- الرجل يصّر على لقائكَ لشكركَ على الاستضافة!

وإذ هم ابن المقفّع بالخروج لملاقاة الرجل، حذّره رستم:

- علّه قاطع طرق أو من أخصامك. دعني أفتّشه قبل أن تلقاه. لربما كان يخبّئ خنجراً تحت ثوبه.

تردّد ابن المقفّع وخلص:

- الأصل حسن النية يا رستم. لا يصح أن نفتّش رجلاً كريماً، فنهينه.

ما إن دخل أبو عمرو غرفة الضيوف والتقت عيناه عيني الضيف حتى لبث بلا حراك. انعقد لسانه من قوة المفاجأة وتجمّدت أطرافه. نظر إلى عابر السبيل بعينين واسعتين. تملّى شعره الفضي المهمل والمسترسل كأنه لم يمشّط أو يقص منذ سنين. تأمّل ثيابه الرثة والممزقة مبهوتاً كأنه يرى

معجزة تستعصي على التصديق. غالب دهشته وفتح ذراعيه. ثم ضمّ الرجل إلى صدره وشفتاه تهمسان:

- عبد الحميد!!

جلس الرجل منهكاً، في عينيه نظرة مَن رأى وخبر أشياء فظيعة. سالت مدامعه وتعثرت على لسانه الكلمات:

- قصدتك مستذكراً قولك المأثور: "إذا نابتْ أخاك إحدى النوائب من زوال نعمة أو نزول بلية، فاعلم أنك قد ابتليتَ معه. وإذا أصاب أخاك فضلٌ، فأنه ليس في دنوكَ منه أو ابتغائك مودته وتواضعك له مذلةٌ فاغتنم ذلك وأعملْ به".

- لبّيك يا أخا الصفاء.. رقبتي فداك..

بصوّتٍ متهدّج:

- أريد ماء.. لم أصلِ طيلة هذا اليوم.

والتفت ابن المقفّع صوب رستم الذي كان يجتهد في تحديد شخصية الدرويش متأملاً المشهد مخطوف اللون:

- من فضلك يا رستم، هاتِ لنا دلواً من الماء.

خرج رستم إلى البئر وعاد بدلو متوسط الحجم. توضأ عبد الحميد والدموع تنثال من عينيه. تأمل ابن المقفّع ضيفه بعينين حزينتين. شاخ منذ آخر لقاء بينهما، تغضّن وجهه وتكاثرت فيه الشقوق والتجاعيد، وبدا جسمه نحيلاً وهشاً كأنه لم يأكل منذ شهور. فطر قلبه أن يرى رجلاً كريماً كعبد الحميد مهدماً عتيقاً ورثاً تماماً. غمغم في سره: "لقد كسرت قلبـي يا صديقي بحضورك مثلما كسرته في غيابك!".

وقف الرجل فوق سجادة الصلاة. ولّى وجهه شطر بيت الله الحرام، ورفع يديه بموازاة صدغيه. تمتم " بسم الله الرحمن الرحيم" بصوت مسموع ثم أكمل السورة في سرّه. استغل ابن المقفّع انشغال صاحبه في أداء الصلاة ليطلب من رستم أن يذبح دجاجتين ويحضّر مائدة تليق بصديق عزيز. اصفرّ وجه رستم. رفع أصبعين وحرّك شفتيه متسائلاً من دون أن يصدر عنه صوت:

- دجاجتان!!

ابتسم ابن المقفّع ورمش بعينيه أن نعم. فكّر: "نعلّم الأميّ، فنعتقه من الجهل. أما البخيل، فكيف السبيل إلى عتقه من البخل؟!".

♦ ♦ ♦

V

حكى عبد الحميد وهم يتشاركون الطعام عن أشياء دون أشياء. وصف لمضيفيْه حمحمة الخيول في حومة الوغى وقرقعة السيوف في معركة الزاب. أخبرهما أن من غرق من جيش مروان يوم ذاك أكثر ممن قتل. انتقل بعدها إلى معركة دمشق واصفاً سقوط المدينة بأحزن الكلمات. لقد انقلبت الأمور فيها رأساً على عقب. فأصبح منتصرو الأمس مهزومي اليوم، وضحايا الأمس جلادين لا يعرفون الرحمة. هل تصدّق أن أكثر من خمسين ألف رجل قُتلوا في الساعات الأولى لسقوط دمشق؟ المشكلة الكبرى أن الإنسان لا يتغيّر. فيظلّ المنتصر ينحو إلى الاعتقاد بأنه سيكون منتصراً إلى الأبد مرتكباً الأخطاء والفظائع ذاتها التي ارتكبها منتصرو الأمس حين نسوا أن كل شيء يتغيّر إلا الله جلّ وعلا.

بلع عبد الحميد ريقه:

- الحمد لله الذي لا يُحمد على مكروه سواه. فلا بد أن حكمة له في تحطيم أوثان الثروة والمقامات وإلا كيف يؤكّد لعباده بأنه وحده هو الباقي؟ لكن ما يحزّ في النفس يا أبا عمرو أن الوقت لم يسعفني لكي أنتهي من وضع رسائل النور التي حدثتكَ عنها ذات يوم في دمشق.

- صحيح الفكر والإيمان؟

هزّ عبد الحميد رأسه ببؤس جليّ:

- وضعتُ عشرين منها، ولسوء طالعي تركتها في دمشق. لا بد أن الجنود الذين اقتحموا القصر ناهبين وحارقين كل ما فيه قد أتلفوها الآن.

- تعيد كتابتها إن شاء الله!

ضحك عبد الحميد في هزء:

- يا لتفاؤلك يا أبا عمرو. أخالك تظن أن العباسيين سيمهلونني وقتاً طويلاً!

ثم مدّ عبد الحميد يده إلى داخل ثوبه وأخرج ورقة مطوية بعناية. قال وهو يعطيها لصاحبه:

- هذه آخر كلمات الخليفة مروان. قصيدة كتبها لنجمة وقد عهد إليّ إيصالها إليها إذا ما كُتب لي البقاء على قيد الحياة.

وإذ حدجه ابن المقفّع بنظرة مستفهمة فقد ربّت عبد الحميد على كتفه قائلاً:

- أعرف أنك كنت على علاقة بها. حارسي الشخصي رآها تتسلّل إلى غرفتك. سمع حواركما وقتها ونقله إليّ كلمة بكلمة.

امتقع وجه المضيف:

- لِمَ لمْ تخبرني وقتذاك؟

- تجنبتُ إحراجك!

- مثلما رآها حارسك، كان يمكن لحرس الخليفة أن يروها أيضاً.

- عهدتُ إلى حارسي أن يعمل على تضليلهم كلّ ليلة تتسلّل فيها إليك لكي لا يروها.

تنهّد ابن المقفّع عميقاً. قال:

- لم أكن ابتغي أخذ ما ليس لي ولكن...

قاطعه عبد الحميد:

- لا حاجة لك أن تبرّر شيئاً. الحب يبرّر كل شيء!

فضّ ابن المقفّع الرسالة وهو ينظر إلى رستم الذي ظل صامتاً طوال الوقت. قرأ في سرّه:

"وما زالَ يدعوني إلى الصبرِ ما أرى
فأنأى ويثنيني الذي لكِ في صدري
وكانَ عزيزاً أن تبيتي وبيننا
حجابٌ فقد أمسيتِ مني على عشْرِ
وأنكاهما والله للقلبِ فاعلمي
إذا زدت مثليها فصرت على شهرِ
وأعظمُ من هذين والله أنني
أخافَ بأن لا نلتقي آخرَ الدهرِ
سأبكيكِ لا مسْتبْقياً فيض عبرةٍ
ولا طالباً بالصبرِ عاقبة الصبرِ"

ما إن أنهى ابن المقفّع قراءة القصيدة حتى لمعت دمعة في عينه. ربّت عبد الحميد على ساق مضيفه بود. ثم اعتدل وقال مستعيداً خيط الحكاية:

- بعد انكسار جيش مروان عند تخوم دمشق، ركبنا دابتيْنا واندفعنا شطر مصر لكن الخليفة بعد بضع فراسخ أوقف دابته وقال لي: "لقد انتهى المشوار يا صديقي. انفِدْ بجلدك ودعني أذهب إلى حتفي وحيداً".
- عاهدتُ نفسي أن أشاركك الممات مثلما شاركتك الحياة.
- لا تقل ذلك يا عبد الحميد. أصدقاؤك أنت كثر وأحباؤك لا يُحصون، أما أنا فلا أمل لي. العساكر تقتفي أثري والعيون تترصدني وما هو إلا وقت قصير حتى يظفر العباسيون بـي.
- لا قدّر الله!

ثم خلع عباءته وأعطاني عصاه.

- هذه عباءة الرسول الأكرم وتلك عصاه. حدسي أنبأني بأنني لست عائداً إلى قصري في دمشق فحملتُهما معي. هما لك منذ الآن!

تحسّست العصا وشممت قماش العباءة. شعور غامض اعتراني وكادت تنثال مدامعي:

- إنهما أغلى ما أمسكت يداي.

بلع الخليفة ريقه وهو يقول:

- رعاك الله يا صديقي.

ضممته إلى صدري وأنا أردّد بصوتٍ مبلل بالدموع التي كنت قد حبستها حتى تلك اللحظة:

- حماك الله يا مولاي.. حماك الله!

هكذا افترقنا. هو أكمل طريقه في اتجاه مصر وأنا يمّمت شطر البصرة الغرّاء. قدّرت أنك لا تملك إلا أن تعود إلى بيت عائلتك بعد سقوط الكوفة وهزيمة أميرها. في طريقي إليك، اعترض طريقي ثلّة من اللصوص. سرقوا دابتي ومالي وزادي من الطعام. ولكنهم، ويا لحسن الحظَ، لم يطمعوا بعباءة الرسول وعصاه. أكملت رحلتي سيراً على الأقدام. وعند نزول الليل وجدتني منهباً للجوع والتعب. لمحت نافذة مضاءة على مبعدة وغذّيت السير حتى أدركتُ ديراً. طرقت درفة بابه وفتح لي راهب يقترب من السبعين كوةً صغيرة. أخبرته أنني تاجر قماش، هاجمني قطّاع طرق ونهبوا

تجارتي ومالي. لكن الراهب ذو الوجه الشمعي المحروم من الشمس تفرّس بـي صامتاً وقال: "بل أنت كاتب مروان بن محمد". ثم فتح لي الباب ودعاني أن أدخل. سألته كيف عرفني. لم يجب لكنه قال: "التقيتُ مولاك في الرقة منذ سنوات خلتْ. أنبأتُه أن ملكه زائل وأن موته يكون على يديّ عين بن عين بن عين". فتحت عينيّ وصحت في ارتياع:

- عبد الله بن علي بن العباس!

مع خيوط الصباح الأولى، شكرت الراهب على استضافتي وغادرتُ ديره مندفعاً شطر البصرة. أثناء سيري، لمحني ثلة من الجنود يمتطون جياداً شديدة السواد. نادوني فهربت. جدّ أحدهم في ملاحقتي. ركضت أمامه في طريق مكشوف حتى وصلت إلى ستر من الأشجار. تواريت هناك بلا حراك. حين ترجل الجندي عن ظهر جواده، انقضضت عليه وطعنته بخنجر في عنقه. ثم امتطيتُ جواده وانطلقت بسرعة خرافية بالكاد استطاعت الشمس رسم الظل على الرمال. حين أدركت مشارف البصرة، استحضرتُ صورة العسكري مضرجاً بدمه وانخرطتُ في نشيج مرير. إذ كيف لي أن أقتل إنساناً لا أبغضه ولا أحبه ولا أعرف عنه أي شيء؟ اكتشفت في تلك اللحظة أن ذلك ربما هو أسوأ ما في الحروب!

♦ ♦ ♦

VI

قبل أن ينقضي الأسبوع كان رجال الشرطة قد اقتحموا بيت ابن المقفّع. سأل متولي الشرطة الرجال الثلاثة: "أيكم عبد الحميد؟". ارتاعوا جميعاً ونهض ابن المقفّع قائلاً: "أنا!" فسأله الشرطي بصوت أراده رادعاً: "أين عباءة الرسول وعصاه؟". جفل ابن المقفّع. حدّق إلى عينيّ رستم مصعوقاً وقرأ فيهما اعترافاً مروّعاً بالخيانة.

- تكلّم أنت أيها الأموي الصغير.. أين أخفيتَ عباءة الرسول؟

صاح عبد الحميد:

- بلْ أنا عبد الحميد وقد أخفيتُ العباءة والعصا في صندوق تحت التراب بمحاذاة البئر في باحة الدار.

أمر المتولي بعض رجاله بإحضار الصندوق، بينما أمر آخرين بالقبض على عبد الحميد وسوقه إلى السجن. لكن ابن المقفّع هتف بصوت قوي:

- لا تصدّقه، بل أنا عبد الحميد!

حار متولي الشرطة في أمرهما. ولم يجد بدّاً من سوقهما إلى أبـي جعفر لينظر في الأمر بنفسه.

♦ ♦ ♦

ما إن أُدخلَ الرجلان إلى القاعة التي يجلس في صدرها أبو جعفر حتى تعرّف الأمير على ابن المقفّع في الحال. فالأمراء ينسون الوجوه التي تنحني لالتقاط القطع الذهبية، لكنهم لا ينسون أبداً أولئك الذين يرفضون عطاياهم ويسمون فوق حطام الدنيا ومتاعها. وما هي إلا برهة حتى أمر المنصور بفك وثاق ابن المقفّع وهو يتوجّه إليه بنبرة لا تخلو من العتب:

- لقد تجاهلنا تاريخك الأموي يا أبا عمرو، وأعتقنا نساء مروان إكراماً لك. وها أنت ذا تخون العهد وتتستّر على أعتى رجال أعدائنا.

- إنه صديقي. وقد جهد في إقناع مروان أن يجنح للسلم وأن لا يرسل جنده إلى خراسان لقمع دعوة بني العباس.

تدخّل كاتب الأمير أبو أيوب وقد بدا مغتبطاً بما سيلقاه كاتب منافس له:

- بل هو مارق. والمروق لا يمكن أن يمرّ من دون عقاب!

تجاهل ابن المقفّع تعليق أبـي أيوب. فأردف متوجّهاً للمنصور:

- .. وهو أكتب خلق الله وأسدّهم رأياً وأرشدهم تدبيراً.

- أما كان مسيلمة الكذّاب أفصح أهل زمانه أيضاً؟

رفع أبو جعفر عينيه نحو الحرس وتكلّم بنبرة لا ترد:

- فليؤخذ عبد الحميد إلى سجنه. غداً نبتّ في أمره مع سائر رجال مروان الذين قُبض عليهم في ضواحي البصرة.

تهدّلت كتفا ابن المقفّع. أضاف بلهجة مستسلمة:

- مولاي، انه بارع في الكتابة والسرد.

- بل بارع في مساندة الخارجين عن طاعة الأمير.

كان أبو أيوب هو من تولّى الرد مجدّداً. فحدجه ابن المقفّع بنظرة حانقة، توحي بأنه لا يود أقل من قتله. وإذ أدرك ابن المقفع أن كل ما يقوله لا يُسمع، فقد جمع حاشية ثوبه وغادر القصر منكّس

الرأس، مكسور الخاطر.

♦ ♦ ♦

VII

اختنق ابن المقفّع بالبكاء في بيته وسرت في بدنه رجفة المحموم. جفّ حلقه وتصبّب العرق من جسمه، وها هي نظراته تنفذ عبر عشرات الأميال إلى السجن حيث يلقى عبد الحميد صنوف العذاب. يرى الأسياخ المحمّاة تخترق يديه وقدميه ويشاهد آلات التعذيب تسحق عظامه وتضغط على صدره وظهره من دون أن يسمع صديقه يصرخ أو يتضرّع لصاحب العذاب أن يرحمه أو يرأف به. نعم رآه يذرف الدموع في صمت وكبر وإجلال. ربما لأن شعوراً اعتراه بأن الله قد تخلّى عنه في تلك اللحظات الحرجة، أو ربما لأنه أيقن أن لا مستقبل لأمة تبرع في تعذيب مفكريها.

♦ ♦ ♦

هذا وقد جاء في كتب الرواة:

"أُتي أبو جعفر المنصور بعبد الحميد الكاتب والبعلبكي المؤذن وسلام الحادي، فهمّ المنصور بقتلهم جميعاً لكونهم من أصحاب مروان، فقال سلام: استبقني فأني أحسن الناس حداء. فقال: وما بلغ من حدائك؟ فقال: تعمد إلى إبل فتظمئها ثلاثة أيام ثم توردها الماء، فإذا وردت رفعت صوتي بالحداء فترفع رؤوسها وتدع الشرب ثم لا تشرب حتى أسكت. فأمر المنصور بإبل فأظمئت ثلاثاً، ثم أوردت الماء، فلما بدأت بالشرب رفع سلام صوته بالحداء فامتنعت من الشرب ثم لم تشرب حتى سكت، فاستبقى سلاماً وأجازه وأجرى عليه رزقه. وقال له البعلبكي المؤذن: استبقني يا أمير المؤمنين قال: وما عندك؟ قال: أنا مؤذن. قال: وما بلغ من أذانك؟ قال: تأمر جارية تقدم إليك طستاً وتأخذ بيدها إبريقاً وتصب عليك، وابتدئ الأذان فتُدهش ويذهب عقلها إذا سمعت أذاني حتى تلقي الإبريق من يدها وهي لا تعلم، فأمر جارية فأعدت ابريقاً فيه ماء وقدمت إليه طستاً وجعلت تصب عليه ورفع البعلبكي صوته بالآذان فبقيت الجارية شاخصة وألقت الإبريق من يدها فاستبقاه وأجازه وأجرى عليه الرزق وصيّر أمر الجامع إليه.

قال له: عبد الحميد الكاتب، استبقني. قال: وما عندك؟ قال: أنا أبلغ أهل زماني في الكتابة. فقال له المنصور: أنت الذي فعلت بنا الأفاعيل وعملت بنا الدواعي. فأمر به فقُطعت يداه ورجلاه ثم ضُرب عنقه".

♦ ♦ ♦

VIII

نزل الليل وعبد الملك لا يني يحاول إقناع ابن المقفّع بأن يقبل عرض أبـي جعفر للعمل في ديوانه.

- لقد أمر بوقف ملاحقتك دون سائر الكتّاب لأنه منّى نفسه بأن تعمل لديه. كما أنه قرأ "كليلة ودمنة" أكثر من مرة وأعجب بسردك أيما إعجاب.

- لم أضع ذلك الكتاب لكي يُعجب الحكّام به بل لكي يعتبروا من أقاصيصه. ولو كان أبو جعفر ممن يعتبرون لما أقدم على إعدام عبد الحميد.

عيل صبر عبد الملك فجمع حاشية ثوبه ونهض ممتعضاً. ثم غادر بيت صاحبه من دون أن يلتفت إلى الوراء. وما هي إلا دقيقتان حتى طُرق الباب. نهض ابن المقفّع متثاقلاً. فتح الباب وكل ظنه أن عبد الملك قد تذكّر أمراً فعاد. لكنه في اللحظة التي فتح فيها الباب، جفل غير مصدِّق. كأن ما يشاهده رؤيا من رؤى الخيال.

- نجمة!

ظلّا لبرهة يراقب أحدهما الآخر في صمت. ولعل ألف فكرة مرّت في خلد كل منهما قبل أن يتهالك بين ذراعيْ الآخر. يبكيان بحرقة ويذرفان الدموع التي حبساها حتى تلك اللحظة. يتأملها ابن المقفّع غير مصدّق أنها معه بعد كل تلك الأحداث التي عرفها العالم. إذ تمزّقت الراية الأموية واندحر حماتها وقُتِل مئات الآلاف من البشر ودارت الأيام على الخليفة شر دورة وأُعدم عبد الحميد بأبشع الطرق. يتأمّل كل منهما الآخر وينفذ إلى داخله كأن السنوات التي مضت لم تكن سوى كابوس طويل تلاشى في اللحظة التي طرقت فيها أناملها الناعمة درفة الباب. وها هي تجلس أمامه لا تعرف ماذا تقول. تتطلّع إليه بعطف وانكسار. تتملّى الشيب الذي غزا فوديه والحزن الذي ملأ عينيه. تتأمّل الخطوط التي استجدت في وجهه وتحت جفنيه المتعبتين.

- تبدو نحيفاً!

قالت لتكسر الصمت.

- تبدين أحلى!

ابتسمت لكنها سرعان ما انفجرت في البكاء. دنا منها، أمسك بيدها وضغط عليها. ومن دون أن يغالب دمعه سألها كيف تخلّصت من الحرس ووصلت إليه. أخبرته بأنها حكاية طويلة، فلم يلّح. ضمّها إلى صدره وراح يتحسّس جسدها كما لو أراد أن يؤكد لنفسه بأنها نجمةٌ حقيقيةٌ هذه المرة وليست متخيّلة.

♦ ♦ ♦

IX

استيقظت نجمة من نومها في الصباح. وجدت ابن المقفّع متربّعاً على مصطبة خشبية في فناء الدار بجانب البئر. أخرجت من ثنايا ثوبها الملقى على الأرض كاغداً ملفوفاً في قماشة مخملية ما لبثت أن حملته إليه.

- هل يهمّك هذا الكاغد؟

وإذ لم يكن ابن المقفّع منتبهاً لقدومها فقد جفل حين سمع صوتها، لكنه سرعان ما رسم ابتسامة على شفتيه وسألها بنبرة دافئة وهو يتناول الكتاب في هدوء:

- ما هذا؟

- لستُ أعلم. لم يسبق لي أن تعلمتُ القراءة!

حمل ابن المقفّع الكاغد بكلتا يديه. فتحه بتؤدة وما إن شرع بالقراءة حتى فتح عينيه على اتساعهما غيّر مصدّق.

- إنها رسائل عبد الحميد!!

وبحركة لاإرادية أخذ يقبّل رأسها ويديها. جذلت نجمة، فقد حدست أن ذلك الكاغد الذي حملته معها من دمشق سيفرح حبيبها. وها هو ذا حدسها يبدو صائباً الآن.

- إنه أثمن ما لمست يداي!

همس ابن المقفّع وهو يتحسّس الحروف المكتوبة بخط صديقه الراحل. ضمّها إلى ذراعيه وسألها:

- ما الذي حملكِ على الاحتفاظ به من دون سائر المخطوطات؟

تنحنحت لتجلو صوتها:

- حين وصلتْ أنباء هزيمة مروان عند تخوم دمشق، دخلتُ جناح عبد الحميد وجلتُ في أركانه. كنت أعرف أنه صديقك الأقرب وحدست أنني قد أعثر لديه على أي شيء يذكرني بك. وإذ دنوت من صندوق مرصّع بالحجارة الكريمة فتحته وعثرت على هذا الكاغد. قلّبتُ أوراقه ووقع بصري على كلمتين يشبه رسمهما ما رأيته في طوق الحمامة، القصة التي قرأتها لي في آخر ليلة لك في دمشق. وإذ أشارت نجمة بأصبعها الجميل إلى تينك الكلمتين فقد قرأهما ابن المقفّع بصوت مسموع:

- إخوان الصفاء.

وفي الليلة الثالثة، أخبرته من دون أن يسألها كيف هربت من عيون الحرس. "عند الفجر غادرنا القصر وسرنا بحراسة مسلحين يعتلون الخيل. بعضهم يسبقنا وبعضهم يمشي خلفنا. بعد يوم من السير هدّنا الوهن، فاسترحنا عند نبع يدعى الحفير وأحضرت لنا نساء من قبيلة باهلة طعاماً وماء. سألتني امرأة عن حكايتي، فقصصتها. هي أيضاً قصّت حكايتها. هربت من ظلم تاجر قيان وتزوجت شاعراً من باهلة. ما لبث، لسوء طالعها، أن قُتل في معركة مع جنود جدّوا في مطاردتها. وقبل طلوع الضوء، اقترحت أن تلبس عباءتي وتكمل الرحلة عني مع نساء مروان لكي يتسنّى لي الهرب من عيون الحرس والقدوم إليك".

سألها ابن المقفّع بصوت خافت عن اسم تلك المرأة. حين فاهت باسم "وردة"، اعترته قشعريرة ورأى في الحياة عدالة تستعصي أحياناً على الفهم.

♦ ♦ ♦

X

فوجئت نجمة حين طَلب منها خليلها الزواج. هكذا من دون مقدمات اقترب منها في الصباح، وهي مقرفصة في باحة الدار. تفرك الملابس بالماء والغسول. سألها بنبرة طفولية:

- هل تقبلين بـي زوجاً لك؟

باغتتها الفكرة ومن دون أن تتوقّف عن متابعة فرك الملابس، سألته:

- ولِمَ تريد الزواج مني؟
- أنتِ في نظر الناس جاريتي.
- لا يهمني كيف يراني الناس. ما يهمني كيف تراني أنت!
- أريد أن أتزوجكِ لكي يعرف الناس كيف أراك!

ظلّت نجمة صامتة لكن شعوراً بالحب غزاها وملأها حتى الجمام.

في هدوءٍ، احتفل العروسان بعقد قرانهما وقد دُعي الخلصاء من الأصحاب إلى العرس. وها هو بشّار يجالس عبد الملك. والشاعر والبة لا يتوقّف عن تبادل النكات والطرائف مع الخليل الفراهيدي. كلّ من تأمّل وجه ابن المقفّع الجذل في ذلك المساء، أحسّ أن الرجل قد تجاوز بفضل نجمة كل ما عرفه في حياته من محنٍ.

حين نزل الليل، اختلى العروسان في غرفتهما. أشعلا الشمعدان وتأملا ظلالهما تتراقص كقلبيهما على الجدران. أهداها قارورة عطر لازوردية ومنديلاً مطرّزاً وأهدته خاتماً ذا حجر فيروزي اللون. تحسّس ابن المقفّع بشرتها برفق وتنشق رائحة الياسمين التي تضوع من نهديها. تلمّس ضفائرها المزيّنة بعدد من الخرزات وخلع عنها عباءتها الموشاة بخطوط ذهبية. حين شرع بتقبيل أطراف أصابعها، تنهّدت وسرى خدر في جسدها. همس في أذنها: "أحبك يا نجمة". سألته بمكر إن كان يحبها أكثر من كتبه وأوراقه. أجابها: "قطعاً!" وكانت تلك أصدق أكاذيبه.

هكذا تمر الأعوام، ونلقى ابن المقفّع عام 755م في كرمان، إقليم خراسان. يكتب في ديوان عيسى بن علي، عم أبـي جعفر المنصور. فقد كان واضحاً أن أعمام أبـي جعفر يتطلّعون إلى عرش الخلافة بعد وفاة الخليفة أبـي العباس. وإذ وضع ابن المقفّع الثأر لدم صديقه عبد الحميد نصب عينيه فقد حسم موقفه والتحق بأخصام أبـي جعفر قبل بدء الصراع. في كرمان، قطع ابن المقفّع شأواً كبيراً في استكمال رسائل عبد الحميد. وها هي نجمة تراقبه في حبور وهو في منامته البيضاء يغمس الريشة في الدواة ويعكف على الكتابة بهدوء. لا تبادله الحديث، لا تريد إشغاله عن مشروعه الكبير. يخبرها أنه يريد إصلاح الرعية برسائل النور وإصلاح الحكّام برسالة الصحابة. تراه يمضي ليله ممسكاً بريشته، فلا يغفو إلا لبعض الوقت عندما يصبح منهك الحيل. لا تتذمّر، وكيف لها أن تتذمّر وهو أولى بالتذمّر منها. أليس حلم كل رجل أن تنجب له امرأته ولداً يحمل اسمه وإرثه؟ وها هي كقلتها لا تحمل منه ولا تنجب له. ومع ذلك يحبها حبّاً تحسدها عليه جميع نساء كرمان.

♦ ♦ ♦

XI

نقل مؤرّخو ذلك الزمان أن الخليفة أبا العباس عبد الله السفاح قد مات بمرض الجدري في مدينة الأنبار عام 136هـ وخلفه أخوه أبو جعفر المنصور لكن عمه عبد الله بن علي الذي ألحق الهزيمة بآخر خلفاء الأمويين خرج عليه وادّعى الإمامة وأراد الخلافة لنفسه. فما كان لأبي جعفر إلا أن وجّه لقتاله جيشاً بقيادة أبي مسلم الخراساني الذي واقعه قرب "نصّيبين". فهُزم عبد الله وفر هارباً إلى البصرة متوارياً عند أخيه سليمان. ثم إن المنصور عزل سليمان عن البصرة سنة 756م وولّى مكانه سفيان المهلبي. وما زال عبد الله بن علي متخفياً متستراً عند أخويه سليمان وعيسى. فطلب منهما المنصور تسليمه، فامتنعا عن ذلك إلا بأمان يمليان شروطه. فقبل أبو جعفر وطلبا من ابن المقفّع أن يكتب الأمان ويحكم شروطه اتقاء لغدر المنصور بعمه. وإذ كان ابن المقفّع يضمر في صدره حقداً على أبي جعفر فقد تشدّد في كتاب الأمان وبالغ فيه: "وإن أنا نلت عبد الله بن علي أو أحداً ممن أقدمه معه بصغير من المكروه أو كبير، أو أوصلت إلى أحد منهم ضرراً، سراً أو علانية، على الوجوه والأسباب كلّها، تصريحاً أو كناية أو بحيلة من الحيل، فنسائي طوالق ودوابي حبس وعبيدي أحرار وقد حلّ لجميع أمة محمد خلعي وحربي والبراءة مني، ولا بيعة لي في رقاب المسلمين ولا عهد ولا ذمة. وقد وجب عليهم الخروج من طاعتي، وإعانة من ناوأني من جميع الخلق، ولا موالاة بيني وبين أحد من المسلمين".

♦ ♦ ♦

وجم الخليفة العتيد أبو جعفر المنصور حين تلا عليه كاتبه أبو أيوب نص كتاب الأمان. صاح وقد خرج عن طوره:

- كيف يجرؤون على مخاطبتي بهذه الطريقة؟!

أجاب كاتبه بنبرة جاهد فيها ألاّ يُستشف منها أي مكر أو دهاء:

- مولاي، إنه ابن المقفّع مَن حبّر الكتاب.
- ابن المقفّع.. صاحب كليلة ودمنة؟!
- هو نفسه. كاتب الأمويين الذي أعفيته من العقاب. فردّ على عفوك بالتستّر على عبد الحميد. ثم استغل شهامتك وأقنعك بإطلاق سراح نساء مروان بن محمد لكي يتزوج إحداهن بعد ذلك. وها هو يتشدّد بكتاب الأمان وينطق بلسان من حرم من شيء يتحرّق لنيله.
- ما هو هذا الشيء؟
- الخلافة يا مولاي. إذ لا ريب أنه منّى نفسه أن يكسرك عمّك عبد الله فيصبح هو كاتبه ويصير بذلك صاحب الديوان.

نظر أبو جعفر مطوّلاً إلى عيني أبي أيوب:

- لو شاء أن يصبح صاحب الديوان لما رفض العمل لديّ وغادر إلى كرمان منذ سنوات خلت!

تلك الكلمات دارت في خلد الخليفة ولكنها لم تخرج من فمه.

XII

أوغل الحكم الجديد، بلا مسوّغ، في الدماء وفتكت سيوفه بالناس لأدنى ريبة أو وهم. فها هم شركاؤهم في الثورة نُهبى لشفرات السيوف، وها هم معارضوهم يذهبون طعمة للصوارم ويترصدهم الموت الزؤام مهما كانت أهدافهم سامية أو نبيلة. وبدا أن لا تصوّر لدى الخليفة في البصرة لكيفية إحلال العدالة وتنظيم علاقة السلطة مع الرعية حتى أن بعض الذين توسّموا خيراً بوصول العباسيين للسلطة ما لبثوا أن أضحوا فريسة للخيبة منشدين بيتاً شاع في ذاك الزمان:

فليت جور بني مروان عاد لنا

وليت عدل بني العباس في النار

في تلك الأجواء وضع ابن المقفّع كتابه الأشهر "رسالة الصحابة" الذي لاقى انتشاراً واسعاً في العالم العربي فأقبل عليه العامة والخاصة حتى أن الورّاقين في العراق والشام تفرغوا لنسخه في حوانيتهم. يدعو الكتاب أمير المؤمنين للإصلاح والالتفات لطبقة المسحوقين. وقد شدّد الكتاب على ضرورة إصلاح الجند، فلا يولّى أحد منهم على جباية الخراج لأن ولاية الخراج مفسدة للمقاتلة، ودعا إلى تعيين وقت محدد لدفع أرزاق الجنود. بل ذهب إلى ضرورة تقصّي أحوال الجند والوقوف على أخبارهم وباطن أمرهم وأن ينتدب لذلك الثقات لاستئصال الشر قبل وقوعه. كما أشار إلى أن الأحكام الشرعية نُهبى للتناقض العظيم. وربما حدث هذا في المدينة الواحدة كالكوفة، فيستحلّ في ناحية منها ما يحرّم في ناحية أخرى. كما دعا الخليفة إلى أن يستميل من أهل الشام من صلح ووفى وأن ينفق عليهم ما جمع من بلادهم. وانتقد ولاة العراق المعيّنين من قبل أمير المؤمنين واصفاً إياهم بالأشرار. وقد رأى في تنحيتهم والإتيان بأهل الفضل إصلاحاً لأمور الدولة. وانتقد صحابة الخليفة معتبراً إياهم متملّقين وكذبة. يحملهم الغلو أحياناً إلى القول لو أمر المنصور الجبال أن تسير لسارت. فبسببهم صارت صحبة الخليفة أمراً سخيفاً حتى طمع فيه الأوغاد. وما رأينا أعجوبة قط أعجب من هذه الصحابة. يؤذن لهم على الخليفة قبل كثير من أبناء المهاجرين والأنصار وقبل قرابة أمير المؤمنين وأهل بيوتات العرب.

وها هو كاتب أبـي جعفر يسرع إلى جناح أمير المؤمنين متأبّطاً رزمة من الأوراق:

- مولاي، ابن المقفّع!
- ما به هذه المرة؟
- وضع كتاباً يغري فيه الناس بنقض طاعتك.

التفت أبو جعفر صوب كاتبه وقد وجمت ملامحه. فأردف أبو أيوب:

- بل يحرّضهم على العصيان عبر تشويهه لحكمكم العادل. فقد تجرأ، لوقاحته، على نصحكم زاعماً أن نظامكم بحاجة إلى إصلاح وتقويم.

ثم أضاف بنبرة ماكرة:

- لو تخلصنا منه يوم قتلنا عبد الحميد لكنّا كففنا شره وشر كتاباته!

فكّر الخليفة لبرهة. ثم زفر بالكلمات التي لطالما انتظرها كاتبه:

- لم يفت الأوان بعد.. هل من يكْفينيه؟

♦ ♦ ♦

XIII

رأى أبو أيوب أن يوكَل أمير البصرة، أبا سفيان المهلبـي، مهمة التخلّص من ابن المقفّع. فرسالة الصحابة مركّزة عليه وله مصلحة أكيدة في القضاء على كاتبها. وإذ وافى الأمر لدى المهلبـي نفساً راغبة فقد سأل أبا أيوب عن أفضل الطرق للقضاء عليه. اقترح كاتب الخليفة أن يبعث الأميرُ برسالة لابن المقفع، يخبره فيها أن الخليفة يرغب في رؤيته لمناقشة كتابه الأخير.

- ويْحك أبا أيوب! فقد يرتاع الرجل ويهرب!
- بل سيأتي مسرعاً! فهو لن يتوانى عن تأدية دور أحد أبطال حكايته.
- ماذا تقصد؟
- في كتابه، كليلة ودمنة، هناك فيلسوف يُدعى بيدبا. وبيدبا رجل لا يخشى مواجهة الملوك والقياصرة بل يغتنم أي فرصة لكي يجأر بالحق في مجالسهم.

ثم نادى الأمير على رستم وأمره أبو أيوب بنبرة حازمة:

- اذهب إلى كرمان. رابط أمام بيت ابن المقفّع، وراقبه جيداً. وفي اللحظة التي يغادر فيها برفقة رسولنا تقتحم داره وتأتي بكلّ ما تعثر عليه من أوراق ومخطوطات ورسائل، لا سيما تلك التي أحضرتها امرأته من قصر دمشق. عيوننا من الخدم يجزمون بأنها دخلت جناح عبد الحميد يوم انكسار جيش مروان وأخفت رسائل مهمة داخل ثوبها. لا بد أنها أعطتها لزوجها لكي ينشرها أو يستكمل كتابتها. تلك الرسائل قد تكون شرارة لبركانِ غضب شعبـي عارم، فلا يجب أن تخرج إلى النور.

هزّ رستم رأسه قائلاً:

- أمرك سيدي. سأتدبّر الأمر ولن أعود إلا بحوزتي تلك الرسائل.

♦ ♦ ♦

XIV

هرعت الخادمة لتخبر ابن المقفّع أن بالباب رسولاً يريد التحدّث إليه. ما إن خرج ابن المقفّع حتى حيّاه الرسول وناوله رسالة من والي البصرة جاء فيها أن الخليفة يرغب بلقائه لمناقشة ما جاء في كتابه الأخير "رسالة الصحابة". وقبل أن يهمّ أبو عمرو بالعودة إلى داره، هتف الرسول: "أُوصيتُ ألاّ أغادر كرمان من دونكم!".

دخل ابن المقفّع ونادى على نجمة. وإذ كانت تغسل الأطباق والأواني فقد جاءت مبلّلة اليدين. سألته بنبرة مرتاعةٍ ما إن رأته مغموماً:

- ما الأمر؟
- أمير المؤمنين..
- ما به؟
- يرغب في رؤيتي..
- لا تذهب. إنه صاحب باع في سفك الدماء ولا عهد له ولا أمان.
- بيدبا في كليلة ودمنة لم يخشَ سلطاناً ولم يعرف محاباة، وقد دخل على الملك ليقول له بأنه طغى وبغى وعتا، وعلا على الرعية، وأساء السيرة حتى عظمتْ منه البلية.
- دبشليم كان متعطشاً إلى المعرفة، أما أبو جعفر فلا شيء يشي بأنه كذلك.

صمت ابن المقفّع. ثم أضاف:

- وإن يكن. إن عدم ذهابـي لمواجهة أبـي جعفر خيانة لبيدبا. ماذا يبقى من الكاتب حين يخون أبطال حكايته؟

فكّرت نجمة. ماذا عساها أن تقول لحبيبها أكثر مما قاله تلاميذ بيدبا لمعلمهم حين سألهم رأيهم في ذهابه للقاء الملك؟ قالوا له وقتها: "إننا نعلم أن السباحة في الماء مع التمساح تغريرٌ، والذنب فيه لمن دخل عليه في موضعه. والذي يستخرج السم من ناب الحية فيبتلعه ليجرّبه على نفسه فليس الذنب للحية. ومن دخل على الأسد في غابته لم يأمن وثبته. وهذا الملك لم تفزعه النوائب ولم تؤدّبه التجارب، ولسنا نأمن عليك من سورته ومبادرته بسوء إذا لقيته بغير ما يحب".

- هل حقاً تريد الذهاب؟

سألته بصوت متحشرج.

- بل أريد البقاء!
- ابقَ إذاً!
- إن على العاقل أن يعرف أن الرأي والهوى متعاديان يا نجمة. وعلى العاقل إذا اشتبه عليه أمران فلم يدرِ في أيهما الصواب أن ينظر أهواهما عنده فيحذره.

ثم توّجه إلى صندوق عليه زخرفات وأصداف. فتحه وعاد بكاغد غلافه أزرق. أعطاه لنجمة وهو يقول:

- إنها خمسون واثنتان رسالة. شرع بكتابتها عبد الحميد وأنهيتها أنا. إن حصل لي أيّ مكروه، تنشريها. لكن حذارِ أن يُعرف من هو كاتبها.
- لِمَ لا تريد أن يعلم الناس بأنك واضعها؟

- هذه رسائل وضعتْ لإصلاح الذات الإنسانية. من يقرأها لن يقبل فكرُه بعد ذلك طغياناً ولن ترفض نفسه الآخر على أساس العرق أو اللون أو الدين. أخشى إن عُرف كاتبها، أن يحجم الناس عن قراءتها بذرائع شتى من مثل أن كاتبها أموي أو فارسي أو حتى زنديق. أمنّي نفسي أن يتعامل الناس مع هذه الرسائل كفكر خالص. أليس هذا هو الهدف الأسمى للمفكّر في نهاية المطاف؟

- ويْحك أبا عمرو. أتعهد إليّ بكتاب يحمل كلّ تلك المعاني وأنا لست سوى جارية أمية؟!

ضمّها ابن المقفّع بذراعين خالطهما التقدير:

- بل أنتِ حبيبتي وموضع سري ومحراب معرفتي. بكِ أستعين وعليك أعتمد. أنتِ التي أتيتِ بالرسائل من دمشق إلى البصرة متحمّلة المخاطر والتبعات من دون أن تدركي قيمتها، ستحفظينها بلا ريب وقد أدركتِ قيمتها الآن.

في تلك اللحظة، دخلت الخادمة:

- سيدي.. الرسول يحثّكم على الإسراع. يقول من المستحسن أن تغادرا قبل مغيب الشمس.

- قولي له إنني قادم..

تعانق العاشقان. بكت نجمة وتوسّلته أن يغفر لها:

- اغفر لك ماذا؟

- اغفر لي لأنني لم أنجب لك ولداً يحمل اسمك وفكرك.

مدّ ابن المقفّع راحة يده ومسح الدموع التي تطفر من عينيها:

- أيتحسر اللبيب على عدم الإنجاب في هذا الزمن العربـي العابر للحسرات؟!

ما إن فتح الباب وهمّ بالمغادرة حتى هتفت نجمة بأعلى صوتها:

- عبد الله!

وإذ التفتَ نحوها، قالت بصوت شجيّ:

- عدني أنك ستعود!

ابتسم ابن المقفّع. حدسه ينبئه أن أبا جعفر لن يتركه يغادر البصرة سالماً، لكن يعزّ عليه أن يخيّب أمل نجمته في لقائهما الأخير، فتمتم مبتسماً:

- أعدك!

♦ ♦ ♦

XV

4/3/2015

حضرة البروفسور شكير،
عسى أن تجدك رسالتي بصحة جيدة،
لقد اطّلعت على النسخ الأصلية لرسائل إخوان الصفاء في مكتبة محمد الفاتح ووجدتها، كما توقعتُ، تتألف من إحدى وخمسين رسالة، إذ لا أثر للرسالة الجامعة في المخطوط الأصلي. علماً أن الفقرة الأخيرة من الرسالة الأولى تشير بوضوح إلى أن عدد الرسائل هو اثنتان وخمسون. فهل هناك رسالة مفقودة؟ كذلك وجدت أن النص الأصلي يختلف بعض الشيء عن النسخ المتوفرة في مكتباتنا. كما لو كان النص الأساسي قد ضاع أو اختفى لفترة من الزمن. فعمل البعض على إعادة كتابته من الذاكرة. ملاحظة أخرى، استبعد استبعاداً تاماً أن تكون تلك الرسائل من وضع جماعة وأميل للاعتقاد إلى أنها من وضع ابن المقفّع الذي اعتنق الإسلام على يدي عيسى بن عبد الله، عم الخليفة المنصور وأمير ولاية كرمان (إيران اليوم). فكانت تلك الرسائل ثمرة تلاقح فكري وديني اختمر طويلاً في عقل واحد من أبدع رجال زمانه. علماً أن هناك عشرين رسالة تقارب المجتمع والإنسان من منظار الفلسفة اليونانية. وإذ لم يكن ابن المقفّع مطلّعاً على الثقافة اليونانية عمق اطلاعه على الثقافات الفارسية والهندية والعربية فإن صديقه عبد الحميد بن يحيى كاتب آخر الخلفاء الأمويين كان قد اغترف من معين الثقافة اليونانية وعمل على ترجمة رسائل سقراط وكتب أرسطوطاليس المنطقية الثلاثة. وإذا ما عرفنا أن الرجل قد تخفّى لدى ابن المقفّع بعد سقوط الحكم الأموي فإن احتمال تعاونهما على وضع تلك الرسائل يكون قائماً بقوة. وهذا ما قد يفسّر عدم رغبتهما في تبني تلك الرسائل. فلا ريب أن لا مصلحة لكاتبين عملا طويلاً في قصور الأمويين أن يعمدا إلى مواجهة الحكم الجديد مواجهة مباشرة. ملاحظة أخيرة، يبدو أن ثمة باحثاً آخر مهتماً بأمر تلك الرسائل. فكلما عدتُ إلى المكتبة لاستكمال القراءة عثرتُ على شارة الكتاب عند صفحة أخرى.
مع فائق المحبة
محمد

♦ ♦ ♦

عزيزي محمد،
تحيّة صباحية طيبة،

ما توصلتَ إليه مثير للاهتمام، وهو نقطة انطلاق للبحث الذي تنوي إجراءه. بالنسبة إلى عدد الرسائل، فإن الأمر محيّر للغاية. إذ إن فرضية فقدان الرسالة الأخيرة واردة بقدر فرضية قتل واضعي الرسائل قبل الانتهاء من صياغتها. أرجو منك أن تطّلع على فهرس الرسائل في المخطوط الأصلي. فإن ذُكرت الرسالة الثانية والخمسون في الفهرس، فذلك يعني أن واضعي الكتاب قد كتبوها بيد أنها فُقدت لسبب أو لآخر. أما إن لم تُذكر، فذلك يفيد أن لا رسالة مفقودة أصلاً بل هناك خطأ وقع فيه واضعو الرسائل حين ذكروا في رسالتهم الأولى بأنها اثنتان وخمسون. فيما عنى الباحث الآخر المهتم بإخوان الصفاء، فربما من المفيد أن تلتقيا وتناقشا ما توصلتما إليه. ألا تحث الرسائل في آخر الأمر على التشاور بين الناس نزولاً عند الآية الكريمة:)... وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ...([الشورى: 38].

د. مراد شكير

XVI

في البصرة، سمح صاحب الإذن لابن المقفّع بدخول ردهة القصر. تجاوز المدخل المقوّس وأجال طرفه في المكان، فلم يجد أحداً. اختار طرّاحة رمادية وجلس فوقها وحيداً. بعد ساعات من الانتظار، همّ ابن المقفّع بالخروج لكن صاحب الإذن منعه قائلاً:

- اصبرْ!

فردّ ابن المقفّع ممازحاً:

- ويْلك، إن الصبر لا يكون إلا على بلاء ولكن قلْ انتظر.

لكن صاحب الإذن لم يبتسم واكتفى بالقول "اجلسْ".

جلس ابن المقفّع متأمّلاً نسجية معلّقة على الحائط ومصحفاً أخضر تزيّنه نقوش ذهبية. أمعن النظر في الأفاريز المحفورة على الأعمدة المستديرة. لاحقها بصرُه حتى الأقواس الملتصقة بالسقف. فجأة دخل حارسان جسيمان. توجّها رأساً نحو ابن المقفع. طرحاه أرضاً من دون أن يكلّماه. شلّا حركته وأوثقا يديه. ثم قاداه تحت أقواس ثلاثة وعبْر سرداب طويل إلى حجرة مظلمة. بعد أسبوع من الحبْس الانفرادي وسط الجرذان والعقارب والروائح العفنة، فُتح باب الحجرة وأطل الحارسان اللذان ساقاه إلى السجن. كتّفاه بإحكام وقاداه عبر ممر طويل مظلم إلى حجرة تضيئها نيران منبعثة من تنور. أحسّ ابن المقفّع بعد ساعات من الوقوف بالوهن. فلم تعد تقوى ساقاه على حمل جسده. أراد أن يقعي على الأرض لكن أحد الحارسيْن نهره وسبّه. ظلّ ابن المقفّع صامتاً ولم يقلْ شيئاً. فمن يواجه الملوك يترفّع عن مواجهة عبيدهم. مال بجذعه وأسند جسده إلى الحائط. أغمض عينيه نصف إغماضة وساورته رغبة في ضم نجمة إلى صدره. وصل الأمير المهلبي برفقة كاتب الخليفة أبي أيوب. فشد الحارسان قامتهما احتراماً. تملّى الأمير وجه ابن المقفّع مطوّلاً. قال متوجّهاً إليه وهو يتحسّس طرف بردته في اعتداد:

- هذه عاقبة من يجرؤ على صحبة الخليفة.

ردّ ابن المقفّع بنبرة عادية:

- لست أول كريم يقع في أيدي اللئام.

ثم توّجه إلى أبي أيوب المروياني:

- أما أنت فجرمك أكبر. إذْ لا يستوي البصير والضرير حين يقعان في الحفرة نفسها.
- ماذا تقصد؟

تساءل الأمير وهو يقرّب وجهه من سجينه وعيناه توشكان أن تخرجا من حدقتيهما.

رد أبو أيوب بنبرة محرّضة تثير الحنق:

- يقصد أنك جاهل، سيدي!
- لنرَ بما سينفعك علمُكَ حين تلتهم أطرافَك جذواتُ النار.
- والله إنك لتقتلني، فتقتل بقتلي ألف نفس ولو قُتل مئة مثلك ما وفوا بواحد.

أطلق الأمير ضحكة وأردف ابن المقفّع بنبرة مَن ألف فكرة مفارقة هذه الدنيا:

- بوسعك أن تحرق المفكّر لكنك لن تستطيع إحراق الفكر!

ما إن تجاوزت الكلمات الأخيرة أذنيْ الأمير حتى مدّ يده نحو أبي أيوب الذي ناوله كاغداً أزرق.

"الخمسون واثنتان في صحيح الفكر والإيمان!".

قرأ المهلبـي العنوان بنبرة متشفيّة، ثم رمى المخطوط بحركة احتفالية في التنور. غام وجه ابن المقفّع وهو يرى الأوراق المكتوبة بخطّ يده تلتف على نفسها كأنما تدرأ النار عنها. لكن النار التي لا ترحم حتى الذين يعبدونها كيف ترحم أوراقاً تحرّر العقل من خرافة عبادتها، مثلما تحرّره من عبادة الأوثان والأوهام والطغاة. وها هي النار تسري في الأوراق، تأكلها وتفحّمها حتى تصبح لا شيء سوى رماد. لكن هل حقاً يصبح المكتوب لا شيء بعد احتراقه؟ أم يحلّق نحو البعيد البعيد، فيتنشّقه كاتب آخر في مكان آخر ويبعثه في كتاب من جديد؟

ثم أمر الوالي بالإجهاز على ابن المقفّع. "وإذا بالشخصين اللذين قيّداه يقطّعان أعضاءه ويرميانها في التنور، إلى أن أتيا على جسده والمهلبـي يقول: والله يا ابن الزنديقة لأحرقنك بنار الدنيا قبل نار الآخرة"[4].

♦ ♦ ♦

XVII

11/3/2015

أخذت إجازة من الثانوية التي أعلّم فيها مادة الفلسفة لكي يتسنّى لي الذهاب إلى مكتبة محمد الفاتح في الصباح. فطبيعة عملي لا تسمح لي بزيارة المكتبة إلا بعد انتهاء الدوام التعليمي، فيما يبدو أن الباحث الآخر يرتاد المكتبة في الصباح. وهذا ما قد يفسّر عدم تلاقينا. دخلت المكتبة في صبيحة ذلك اليوم وتوجّهت رأساً إلى الرف الذي يحتوي على مخطوطة إخوان الصفاء. فتحتُ الكتاب ذا الأوراق المتآكلة الحواف بتؤدة وبدا لي أن الباحث الآخر لمّا يأتِ بعد. إذ إن شارة الكتاب لم تزل حيث تركتها في مساء اليوم التالي. فتّشتُ عن الفهرس ووجدته يشير إلى واحدة وخمسين رسالة لكن الصفحة نفسها معنونة بـ "الخمسون واثنتان في صحيح الفكر والإيمان". مرّ الوقت بطيئاً في انتظار الباحث المجهول. وعندما صارت الساعة الثامنة مساءً وأخطرتني العاملة ذات الشعر الأشقر القصير بانتهاء الدوام، أخرجتُ من حقيبتي الجلدية ورقة صغيرة وكتبت فيها الكلمات التالية:

"لستُ أدري كيف أتوّجه إليك، فأنا لا أعرف من تكون ولا أعرف ما الذي حملك على الاهتمام برسائل إخوان الصفاء. لذلك سأتوجّه إليك بـ "يا أخا الصفاء" مثلما كان يحب ابن المقفّع أن ينادي صديقه الأحب وربما شريكه في وضع هذه الرسائل. إذ كيف لا تكون أخي وقد جمعتنا الرسائل التي ترى العالم، برغم ما يُسفك فيه من دماء، وحدة حيّة متكاملة. مثلما ترى الإنسان أيضاً وحدة بعد كلّ كثرة والباري جل ثناؤه وحدة قبل كل كثرة.

لقد أخذتُ إجازة اليوم من عملي وضربتُ من جانب واحد موعداً صباحياً معك. غير أنك، ويا لخيبة أملي، لم تأتِ. فهلّا تكرّمتَ واقترحتَ عليّ موعداً يناسبك، فنلتقي هنا في المكتبة أو في أي مكان آخر ترتئيه".

محمد

♦ ♦ ♦

في صباح اليوم التالي، رن منبّه الهاتف عند السادسة صباحاً لكنني لم أستطع أن أغادر فراشي. فقد كنتُ أشعر بدوار شديد وألم في المفاصل. أغمضتُ عينيّ مجدداً ولم أصحُ إلا عند الثانية ظهراً. عندما فتحتُ عيني وجدت أن مراد شكير قد أرسل لي رسالة جديدة. فتحتها وأنا مستلقٍ على سريري ومدثّر بلحاف سميك. ما إن قرأت الرسالة حتى ارتاعت نفسي وانتفض جسدي:

"هناك عمل إرهابـي كبير في مكتبة الفاتح. إن لم تكن في ذلك المكان فلا تتوجّه إليه. طمئني عنك متى وصلتك الرسالة!".

♦ ♦ ♦

XVIII

ما إن استوى ابن المقفّع فوق صهوة جواده وسار مخلّفاً وراءه زوجته ورسائله حتى اقتحم رستم داره مثلما أُمرَ. ارتاعت الخادمة وجفلت نجمة ما إن رأته. تملّت ملامحه وتعرّفت عليه بسهولة. فقد وصفه ابن المقفّع لها غير مرة. مديد الطول، عريض الكتفين، خفيف اللحية وله ثؤلولة في منتصف جبينه.

- أين الرسائل؟

صاح المقتحم وهو يخرج خنجراً معقوفاً من الغمد.

- أي رسائل؟
- رسائل عبد الحميد. أعطيني إيّاها وإلا قتلتكِ!

تردّدت نجمة لكن الخادمة هتفت بنبرة متوسّلة:

- لا تقتلها. سأحضرها لك في الحال!

وما هي إلا لحظات حتى عادت الخادمة من حجرة ابن المقفّع بصندوق مستطيل مزخرف بالأصداف. قالت وهي تضعه عند قدميه:

- هذه كل الأوراق والكتب التي تركها سيدي.

فتح رستم الصندوق ورفع كاغداً ذا غلاف أزرق. فتحه وتمتم بصوت مسموع:

- الخمسون واثنتان في صحيح الفكر والإيمان.
- هذي هي!

قال في حبور وهو يمرّر أصابعه على الكلمات كأنه يريد سبر أغوار الرسائل عن طريق اللمس. ثم تأبّط الكاغد وهمّ بالمغادرة. في تلك اللحظة، هتفت نجمة بصوتٍ متهدّج:

- تذكّرْ قبل أن تودع تلك الرسائل النار، قول ابن المقفّع: "لو قرأ أبو مسلم رسالة عبد الحميد قبل إحراقها لجنّب المسلمين الكثير من الدماء".

حدّق رستم إلى وجه نجمة. أراد أن يقول شيئاً لكنه ظل صامتاً وغادر في هدوء. أما نجمة فقد أخفت وجهها بكفيها وانتحبت.

♦ ♦ ♦

XIX

12/3/2015

ما إن قرأتُ الإيميل حتى نهضتُ من فراشي لكي أشغّل التلفزيون. تنفسّتُ الصعداء حين قرأتُ الخبر العاجل في أسفل الشاشة "إحباط محاولة إرهابية ضخمة في مكتبة محمد الفاتح". قلّبت القنوات وعثرتُ على قناة تبث حواراً هاتفياً مع مسؤول شعبة المخابرات في إسطنبول. يقول للمذيعة إن مَن وضع العبوات الثلاث هو نفسه من اتصل بهم وحدّد لهم أماكن زرعها. مستغربةً تسأله المذيعة: ولماذا فعل ذلك، إن لم يكن راغباً في تنفيذ العملية الإرهابية، لماذا زرع العبوات في الأصل؟ هل هي صحوة ضمير أم رسالة للحكومة؟ لم أسمع جواب الرجل. فقد علق بصري بالصّور التي التقطتها كاميرات المكتبة والتي تظهر الإرهابـي في مشهديْن اثنين، يتكرّر بثهما لعشرات المرات. ها هو الرجل الطويل، ذو الكتفين العريضتين والثؤلولة في منتصف جبينه يزرع إحدى العبوات في الطابق الثاني خلف مجموعة من المخطوطات القديمة. وها هو أيضاً أمام رفٍّ أعرفه جيداً، يمدّ يده ويلتقط رسائل إخوان الصفاء. يفتحها بهدوء. يقرأها ربما تمويهاً، ربما اهتماماً، وربما تقطيعاً للوقت.

XX

حين أدرك رستم الكوفة في طريقه إلى البصرة تفكّر مليّاً بكلمات نجمة وعزم على قراءة الرسائل قبل إعطائها للأمير. أوثق جواده إلى نخلة قصيرة وجلس في ظلّها. وها هو يقرأ الرسائل بنهمِ مَن لم يقرأ منذ زمن بعيد. كل رسالة كانت تغيّر شيئاً في داخله حتى إذا ما انتهى من قراءة الرسالة الواحدة والخمسين تسرّب إليه شعور قوي بتأنيب الضمير لكل ما صنعه مع الرجل الذي منحه نعمة القراءة. طوى الصفحةَ الأخيرة ولم يجد الرسالة الثانية والخمسين. عاد إلى الفهرس وقرأ أن الرسائل عددها اثنتان وخمسون. طار صوابه. فكّر إن كان فقدان رسالة واحدة قد أزعجه إلى هذا الحد، فكيف بفقدانها جميعاً! قبل مغيب الشمس، كان رستم قد امتطى جواده واندفع شطر البصرة الغرّاء لكن فكرةً غريبة طرأت على باله قبل أن يتجاوز أسوار الكوفة العالية والمدبّبة كأسنّة الرماح. ليس ثمة رسالة ضائعة. بل إن ابن المقفّع قد ترك الرسالة الأخيرة بيضاء عن عمد لكي يكتبها القارئ. إنها رسالة القارئ في الحياة بعد اطلاعه على تلك الرسائل في المحبة والفكر والقيم. إنها انعكاس لفكرة لطالما ردّدها أمامه وهي أن لا قيمة للمعرفة إن لم تنعكس على حياة المرء وسلوكه. والآن ما هي رسالتك الأخيرة يا رستم؟ أنت الذي كلما خدمت الطغاة زادوا طغياناً ورغبة في استعبادك. رسالتك هي الانتقام. وليس هناك انتقام موجع للشر أقسى من حفظ التراث الخيّر للإنسانية. هكذا قرّ قراره وقفل عائداً إلى الكوفة. دخل أسواقها وتوجّه لشراء القرطاسية من أقلام وأوراق ومحابر. وجد صاحب الحانوت يُحكم إغلاق المزلاج الحديدي لدكانه. طلب منه أوراقاً ودواة لكن صاحب الدكان سأله أن يأتي في الغد. فما كان من رستم إلا أن أخرج الخنجر من غمده. وضعه في خاصرة الرجل البطين وهو يقول: "افتح الدكان الآن وإلا قتلتك".

في أحد خانات الكوفة، جلس رستم أمام منضدة خشبية شارعاً بنسخ الرسائل. ظلّ على هذا المنوال ليومين، وحين انتهى من نسخها مرّ على ورّاق عجوز. رتّب له أوراق المخطوط، قصّ جلداً أزرق لتغليفه وانحنى راسماً العنوان بخطٍّ كوفي أنيق. ثم نادى على خادمة زنجية لكي تدخل الخيط في ثقب الإبرة وتخيط كعب المخطوط ذهاباً وإياباً.

حين دخل رستم البصرة، أعطى المهلبي الرسائل المكتوبة بخطّ ابن المقفّع. ثم دلف إلى مكتبة القصر السرية. عبر ممرّاً معتماً تئزّ أخشابه لوقع الخطوات عليه. دفع الباب فاستجاب بصوت يشبه الأنين. حين نفذ وجد الحجرة معتمة، فعاد أدراجه وأحضر سراجاً مضاء. هبط الدرج الحجري المترب بتؤدة. تأمّل المخطوطات الملفوفة والمكدّسة في صناديق خشبية عتيقة، تستقر على جوانبها عناكب تنسج خيوطاً توحي لمن يتأمّلها بأنها تحضن المعرفة وتحميها. أودع الكتاب الأزرق في أحد الصناديق. ثم صعد الدرجات الثلاث مغلقاً خلفه باب المكتبة على مهل، كمن يغلق الباب على نائم يخشى إيقاظه.

♦ ♦ ♦

XXI

في عام 813م، بويع المأمون خليفة للمسلمين. وإذ كان الرجل محبّاً للمعرفة فقد أسس مكتبة بيت الحكمة في بغداد لتكون واحدة من أعظم مكتبات العالم على الإطلاق. وقد حرص على جمع الكتب والمخطوطات من مختلف أنحاء الأمة الإسلامية منقذاً بذلك رسائل ابن المقفّع من التلف بفعل الإهمال والرطوبة. عام 1130م، أغلق المستنجد بالله أبواب مكتبة بيت الحكمة أمام الباحثين والفلاسفة لكن أحدهم كان قد نسخ تلك الرسائل وأخرجها للعامة باسم رسائل إخوان الصفاء وخلاّن الوفاء. وإذ لم يُعرف وقتها مصدر تلك الرسائل فقد حار الناس في أمرها ونسبوها إلى الأندلسي والمجريطي والمقدسي والزنجاتي والعوفي والنهرجوري وجماعة زيد بن رافعة. عام 1150م، رأى المستنجد بالله في انتشار تلك الرسائل خطراً على عرشه، فجرّم قراءتها وأمر بجمعها وإحراقها في وسط بغداد. ما لم يخطر بباله، إن النسخة الأصلية لم تزل محفوظة في بيت الحكمة.
عام 1258م، اجتاح المغول بغداد. فأمروا بهدمها ولم يستثنوا مكتبة بيت الحكمة. أضرموا فيها النار حتى ظلّت تحترق ثلاثة أيام بلياليها وضاعت تصانيف لا تُحصى، ربما كانت إحدى النسخ الأصلية للقرآن من بينها. وقبل أن تأتي النيران على كل ما في المكتبة آل فلكي يُدعى نصير الدين الطوسي على نفسه إنقاذ ما تبقى من المخطوطات. فالتقى هولاكو الذي كان عرياً من العلم، وأخبره: "إن لم تُخمد النيران الآن فإن الله سيُرسل حوتاً عظيماً هذه الليلة لالتهام قمر بغداد إلى الأبد. أما إذا أُخمدتْ فأن الحوت سيكتفي بالمرور إلى جانب القمر وقد يحجبه لدقائق معدودة لكنه لن يلتهمه أبداً". ارتاع هولاكو وأمر بإخماد النار فوراً. ثم أمر بحبْس الطوسي قائلاً لحرّاسه: إن صدق أطلقناه وإن كذب قتلناه وأحرقنا ما تبقى من الكتب. عندما نزل الليل وخُسف القمر اتفق أن هولاكو كان نائماً ولم يجسر أحد على تنبيهه. فقال الطوسي لحرّاس سجنه أن يدقّوا على الطاسات كي لا يذهب القمر إلى يوم القيامة. فشرع كل واحد منهم يدقّ على طاسته. عمّت الغوغاء واستيقظ هولاكو ورأى الحوت يقترب من القمر من دون أن يلتهمه، فصدّق الفلكي وأكرمه لأنه أنقذ قمر بغداد. هكذا نجت الرسائل مرة أخرى لكنها ظلّت مهملة حتى عام 1455م حين أمر السلطان العثماني محمد الفاتح بإنشاء مكتبة تحمل اسمه في وسط إسطنبول، وقد حرص على إحضار كل ما تبقى من مخطوطات في بيت الحكمة. عام 2015م، قرر أنصار تنظيم متشدّد تفجير مكتبة محمد الفاتح التاريخية لاحتوائها على مخطوطات قديمة تناقض المفاهيم والأفكار التي يؤمنون بها. وقد كلّف أميرُ الجماعة أحد رجاله الخلّص بزرع ثلاث عبوات داخل المبنى لكن أمراً غامضاً حال في اللحظات الأخيرة دون تنفيذ العملية.

XXII

19/3/2015

بعد مرور أسبوع، هدأت الأجواء في إسطنبول وتوجّهتُ إلى مكتبة الفاتح بعد انتهاء الدوام التعليمي. وجدت أن حواجز استجدّت عند المنافذ المؤدية إلى المكتبة. فرحت بوجود الشرطة، فلطالما آمنت أن المعرفة بحاجة لقوة تحميها. تردّدت في التوجّه رأساً إلى مخطوط الرسائل. فتحت مخطوطات تاريخية أخرى وقرأتُ ما جاء فيها من دون أي تركيز. بعد نصف ساعة، توجّهتُ إلى الرف الذي يحتوي على الرسائل. فتحت المخطوط وأنا أتلفّت يمنة ويسرة. فتّشت عن الورقة التي وضعتها بين الصفحات، فلم أجدها.

حين رجعتُ إلى البيت، فكّرتُ مليّاً. هل الرسائل هي التي حملت الإرهابـي على التراجع عن تنفيذ عمليته أم رسالتي التي وضعتها له؟ ربما كان الإرهابـي يقرأ الكتاب تمويهاً، لكن رسالتي حملته على الاهتمام بالمخطوط، فقرأه بتمعّن، ثم حين وجد أن ثمة رسالة مفقودة، كتبها على طريقته. ألا تعصم المعرفة من التطرف في آخر الأمر؟".

لم أستطع أن أنام حتى ساعة متأخرة من الليل. تقلّبت في فراشي من جانب إلى جانب وأنا أحلّل كلّ السيناريوهات الممكنة التي حملت الإرهابـي على إلغاء عمليته. وقبل طلوع الضوء وجدتُني أفتح الكمبيوتر وأكتب الرسالة التالية:

"جانب البروفيسور شكير المحترم،

أظن أن لا رسالة مفقودة في المخطوط، بل إن كاتب الرسائل قد تعمّد عدم وضع الرسالة الأخيرة لكي تكون من صياغة القارئ نفسه. فالمعرفة لا قيمة لها إن لم تكن قادرة على تغيير الإنسان والتأثير فيه. كذلك لا قيمة للإنسان إن لم يكن قادراً على التأثير في المعرفة. وعليه، آثرتُ أن أصرف النظر عن استكمال الأطروحة في هذه المرحلة. وسأعنى بوضع الرسالة الثانية والخمسين، رسالتي، رسالة النور.

المخلص، محمد

♦ ♦ ♦

ملحوظة متأخرة

يقول المؤرّخون إن أبا جعفر المنصور قد بنى إمبراطورية مرموقة الجانب. فارتفعت في عهده بغداد بأفانين الحضارة ونهضت منارةً للعلوم والآداب. وراجت الزراعة في العالم الإسلامي واستُصلحت الأراضي ونشطت التجارة مع أقاصي البلدان. ورأى فريق كبير أن ذلك لم يكن ممكناً لو كان الرجل متسامحاً متساهلاً مع المعارضين وأصحاب الرأي. ففي رأيهم أن لا بأس في الاستبداد إن وُضِعَ في خدمة النظام وتطوير المجتمع. وهم في ذلك إنما يشبّهون أبا جعفر بالمستبدّ المستنير والطاغية البنّاء. بيْد أن فريقاً آخر لم يرَ بأبـي جعفر إلا بطّاشاً دموياً، يخاف حرية الرأي والتفكير ويرى فيهما وبالاً عظيماً. لذلك لم يتردّد بقتل أبـي غالب كاتب عمه عبد الله، والفضيل كاتب ابنه جعفر، والشاعر سُدَيف، وابن المقفّع، وعبد الحميد، بل وحتى كاتبه الخاص أبـي أيوب المروياني. وبتعبير الطبري قتل أبو جعفر "أهل الدنيا ممن لا يُحصى ولا يُعد".

ولم يزل الناس في أجزاء من عالمنا العربـي منقسمين بين هذين الفريقين. بعضهم يبرّر غيّ الحاكم بذريعة متطلبات بناء الدولة وبعضهم يرى أن ما يُبنى على القمع لن يلبث أن يتداعى مهما علا وارتفع. أذكر في الصفوف الأولى أن معلمة التاريخ كانت منحازة لأبـي جعفر وترى فيه واحداً من أعظم رجالات التاريخ العربـي على الإطلاق، بينما كانت معلمة اللغة العربية محبّة لابن المقفّع وتجد فيه مصلحاً جريئاً لا يهادن وقد دفع حياته ثمناً لأدبه وفكره. أما أنا فلم أكن في عمر يسمح لي بالاختيار بين الرجلين. ومع ذلك أحببتُ ابن المقفع وكرهتُ أبا جعفر. ولم أنحُ ذلك المنحى إلا إكراماً لمعلمة اللغة التي كانت أكثر طيبة وعطفاً من معلمة التاريخ. احتجتُ لسنوات عديدة قبل أن أدرك بأنني لم أتبنَّ في طفولتي معياراً خاطئاً للتمييز بين الرجلين. ففي آخر الأمر، أليس انحيازنا لأيٍّ منهما هو انعكاس لذاتنا الحقيقية؟!

♦ ♦ ♦

للتواصل مع المؤلف

Mohammad_tarazi@hotmail.com

انتهى

---

[1] عاتكة هي زوجة الخليفة، تشبّب بها الأحوص في هذه القصيدة. فنُفي إلى جزيرة نائية بين اليمن والحبشة.

[2] كان ملْك بني أمية يقارب وقتها المئة عام. والعرب كانت تسمي كل مئة عام حماراً. والحمار هنا يمثّل حمار النبـي عزير الذي بُعث بعد مئة عام من موته. فالحمار بهذا المعنى يجّسد البعث والأمل.

[3] سوق في البصرة تشبه عكاظ الجاهليين.

[4] الجهشياري، الوزراء والكتّاب.